رواية

معصية ليلى

سعد عايد البدر

الطبعة الأولى

مقـــدمة:

قبل كل رواية، أقوم بالعمل والتجهيز لها، لكنّ هذه الرواية، أستطيع أن أقول إنّها «وليدةُ اللحظة»، ظهرت من عدم، أو ربّما من لقطة خاطفة على إحدى القنوات الإخبارية وهي تتحدّث عن البوسنة والهرسك، لتبني الأحداث في ذهني وتقفز الشخصيات أمامي، لتدفعني أن أترك ما أكتبه وأبدأ بقصّة ليلى، تلك الطفلة التي عانت الكثير، واعتقدت أن «الهرب» هو خير وسيلة لنسيان ما حدث، لكن ما كان ينتظرها كان أمرٌ من ذلك.

ربّما بعضكم يفكّر في كلمة «معصية» وما هي المعصية التي فعلتها ليلى، لكن قبل أن تقرأ أول سطر، أسألك سؤالاً..

- هل تعتقد أن كلّ الحقائق التي تعرفها، لم يتخلّلها زيفٌ أو تحريف؟!

إذا أجبت، فانطلق سريعاً بالقراءة. وإذا لم تجد الإجابة، فربما ستعرف بين السطور إجابتك المناسبة!

بيت الحكايات
maktabbah.blogspot.com

الساعة الثالثة ظهراً. زحامٌ وأصواتُ منبهاتِ السيّارات التي تزعج رأس مقداد، مدير دار منار الكلمة للنشر، كان على مقربةٍ من الذهاب إلى مكتبهِ. قبل أن تصلَه رسالة:

«السيّد مقداد عذراً على الإزعاج، اتصلتُ بكَ مراراً ولم تردّ، معك الصحافيُّ عمر بركات، يرجاء الاتصال للضرورة!».

www.maktabbah.blogspot.com

أعاد مقدادُ النظر في الرسالةِ ثم رفع بصره نحو الازدحام الشديد أمامه. يردّد في نفسه: «لنضيع الوقتَ معه قليلا». كان يعتقد أنّ عمر يبحث عن لقاءٍ صحافي معه لمعرفة جديد الدار، لكنّ كلّ ما توقّعه كان في غير محله.

يرنُّ الهاتف.. ردّ عمر، يردّد بصوت عالٍ ومزعجٍ لكنّه بنبرة المرحّب:

- أهلاً وسهلًا أستاذ مقداد، أنا سعيد لاتصالك بي..

يردّ ذلك الرجل بتعالٍ.

- أهلاً. تفضّل لأنني أنتظر مكالمة أخرى.. هل أسئلتك جاهزة..

انخفض صوت عمر قليلاً.

- أسئلة..ليست لديّ أسئلة، بل لديّ كنز!

ينخفض غرورُ مقداد.. ويردّد بصوت مستهزئ.

www.maktabbah.blogspot.com

- كنز؟ آه.. لا تقل إنّ لديك عملاً وتريد أن تنشره مع الدار. أنت تعرف الخطّ..

يقاطعه..

- لا، ليس لديّ عمل.. أنا لا أملك الوقت للكتابة.. عملي يشغلني عن كل ما أريدُ فعله.. أنا لديّ كنزٌ.. أو لنقل كتاباً ثريّاً جدّاً، تستطيع أن تجنيَ منه آلاف الدنانير!

يحاول مقدادَ أن يختصر المكالمة.. فمثل تلك الأحاديث مرّت عليه، هناك

كاتبٌ قال له أملك كتاباً سيحقّق آلاف المبيعات.. وعندما قرأه اكتشف إنه يتحدّث عن قهوته المرّة التي يشربها كلّ صباح.. ماذا يستفيد القارئ...يحاول أن يختصر الحديث معه.

www.maktabbah.blogspot.com

- العمل يقدّم عبر بريد الدار الإلكتروني، سيُعرض على لجنة التقييم والتي ستبتُّ في أمره.. أرجوك لا تُدخلني في عمل غيري،

يضحك عُمر بطريقة مستفزّة.

- لن أعرضه، بل يجب أن أسمع عرضك.. أنت لستَ أولَ مَن اتصلَ بي.. سبقك دار الحروف الذهبية والذين يبحثون عن فرصة لمقابلتي.. كذلك دار الدروب.

الاستفزاز تغلّل في مقداد بسبب ضحكته والازدحام..

www.maktabbah.blogspot.com

- أتمنّى أن تنظرَ في عرضَيهما هما داران على قدر كبير من الانتشار والشهرة.. سيحقّقان ما تريده.

يوافقه..

- آه.. معك حقّ.. لكن هي ترى أنكم الخيار الأول.

بسؤال المستفهم..

- ومن هي تلك؟

يصمت برهةً..

- الراحلة ليلى أليتش.. التي شغلت قلوبكم وعقولكم سنوات. يضحك مقداد محاولاً الردّ على الضحكة المستفزّة منه

www.maktabbah.blogspot.com

- لديها كتابٌ يروي حياتها كاملةً مع دار «الأنهار»، إذا لم تقرأه، فسأرسل إليك نسخة.

يستمرّ بضحكته المستفزّة جدًا..

maktabbah.blogspot.com

- لدي نسخة وقرأتها كاملة، لكن من قال لك إنها أصلية.. لديّ الرواية الأصلية الموقّعة منها وعليها بصمة من إبهامها، تروي تفاصيل ستشعرك بدهشة كبيرة.. وسأهديك معلومة من هذا الكتاب تكفي أن يجعله الأكثر مبيعاً لأشهر في جميع المكتبات.

www.maktabbah.blogspot.com

لم يردّ عمر عليه بل اكتفى بالصمت..

- سأخبرك دون أن تسأل.. المطرب جمال ياقوت.. هو أحد أبطال تلك الرواية وبدليل قاطع.

يفكّر عمر أنّ جمالاً هو أشهر المطربين حالياً وأغانيه منتشرة بشكل كبير في الوطن العربي.. ويكفي أن يضع اسمه في نبذة الكتاب لضمان نجاحه.

يردّ عليه..

- أحتاج أن أقرأ ما كُتب.. والإثباتات.. التي تؤكّد أنّ الكتاب لها..

يطلب عمر عنوان المكتب ويتواعدان في العاشرة من مساء اليوم، فعمر يريد السفر قريبا ويحاول أن ينهي هذا «الهمّ الثقيل» كما وصفه لمقداد الذي بدأ بالانشغال في التفكير بحقيقة ما كُتب.

www.maktabbah.blogspot.com

لم يغادر مقداد مكتبه.. كان يتصفّح كتاب «سيرة ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

يتأمّل الرسائل التي حاولت توصيلها.. منذ أن كانت طفلة في البوسنة والهرسك ومراهقتها في اليونان، حتى غادرتها إلى الخليج لتبدأ قصة وحكاية جديدة. كان مقداد يردّد دائماً أن الكتاب لا يستحقّ النجاح الذي ناله، فهو حقّق مبيعات كبيرة خاصّة وأنه صدر بعد أنباء وفاتها بأشهر قليلة، وهو ما سبّب انتشاره وتحقيقه لتلك الأرقام. ولكن ربّما هذا الكتاب الذي يتضمّن معلوماتٍ عن المطرب جمال، سيعيده إلى الساحة مجدّداً..

وسط هذا التفكير، تدخل عليه السكرتيرة رهف التي كانت تستعدّ لمغادرة المكان.

maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحكايات
maktabbah.blogspot.com

يحدثها مقداد:

- اذهبي.. أنا جالسٌ هنا في انتظار ضيف..

تبتسم..

- لقد حضر.. هو موجودٌ في الخارج.. أنا سأغادر لأتركك معه.

www.maktabbah.blogspot.com

تودعه وتخرج. بعد ثوانٍ يدخل عمر، الشاب الثلاثيني، أصلع، جسده هزيل.. يرتدي قميصاً زهرياً و بنطلوناً أبيض.. يحمل بيده ملفاً أخضر ممتلئاً بالأوراق.. يقترب ليلقي التحية، يبدأ بالحديث:

- هل تعرف لماذا اختارت ليلى داركم..؟

ينظر إليه مقداد دون أن يجيب

- لأنها قرأت كتاب «ذكريات» الذي يروي مذكرات فتاة لبنانية أثناء مجزرة صبرا وشتيلا.. لقد تأثرت كثيراً بما كُتب.

يقطع مقداد صمته

- وما أدراك أنتَ.. هل كانت تتحدث إليك..

www.maktabbah.blogspot.com

يهز رأسه بالنفي.. ويشير بيده إلى الملف.

- كلّ شيء مكتوبٌ هنا، هناك رسالةٌ أتت إليك يجب أن تقرأها أولاً ثم تتصفّح بقية الرسائل المتبادلة بينها وبين جمال.. وكذلك مع زوجها، والقصة التي حدثت دون أي تزييف كما جاء في كتابها «محبوبة الجميع» المليء بالزيف والأكاذيب.

ينظر إليه..

- هل هذا الملف الأخضر لي؟

يضعه عمر على مكتبه، ويقف من مكانه..

- نعم هو لك، سأعود بعد غدٍ، وسأسمع منك كلمتين.. إما نعم سأنشر، أو

maktabbah.blogspot.com

لا لتذهب إلى دار أخرى.. لن نضيع وقتنا بالنقاش، وأمّا المبلغ المدفوع، فهو ثمانية آلاف دينار.. ولن نتنازل عن دينار واحد، وللعلم أنا سأحصلَ على 10% من هذا المبلغ، بينما البقية ستذهب إلى ابنتها داليا في سراييفو حيث تعيش حاليا، وأتمنى أن يكون العقد باسمي أنا لأني المكلّف بإدارة شؤون هذا الكتاب.

يخرج من المكتب، يغلق الباب وراءه بهدوء، يفتح مقدادُ الملفَ الأخضر فيجد رسالةً أمامه كتب عليها:

لا يفتحها سوى مدير دار النشر الأخ مقداد إن كان موجودًا أو من ينوب عنه.

يفتحها ويقرأ:

السيد/ مقداد أو من يتولّى مكانه:

أكتب لك هذه الرسالة وأنا على فراش المرض أو أستطيع تسميته فراش الموت، وحدهما الوسادة والغطاء يشهدان لحظاتي الأخيرة، أهديك قصتي الحقيقية التي أريد أن يقرأها الجميع ليعلم كم عانيت في حياتي حتى أصبح «ليلى.. محبوبة الجميع» كما لقبوني.. أوصيت أن تنشر هذه الرواية بعد ثمانية أعوام من موتي.. حتى تكون ابنتي الوحيدة «داليا» قد بلغت الثامنة عشرة، ويكون المبلغ المدفوع كاملاً لإكمال دراستها، فأنا لا أريد أن تكون بحاجة لأحد خاصّة زوجي محمود، لا أريد أن تعيش في ضنك وحزن وتعاسة.

سيدي.. أرفقتُ كلّ الأوراق والرسائل التي تثبتُ أنّ كلّ حرف كتب هنا حقيقة وليست زيفًا، بإمكانك التأكد منها أيضا.

www.maktabbah.blogspot.com

أريدك أنت أن تكتب المقدمة، فأنت وحدك من سيشعر بما عشت، كما شعرت بتلك الفتاة اللبنانية ومذبحة صبرا وشاتيلا وكيف وصفت حالها ووحدتها بعد أن فقدت أسرتها جراء تلك المذبحة.. القصة أبكتني طويلاً وعلمت أنني لستُ وحدي من يحاصرها الحزن والأسى في كلّ مكان،

فهناك الكثير من البشر من يعاندهم الحظ والظروف والموقع الجغرافي.

www.maktabbah.blogspot.com

هناك كتابٌ آخرُ سيصدرُ قريباً اسمه «سيرة ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»..وهو مزيف كتبته من أجل توفير المقابل المادي منه لمصلحة محمود والذي اشترط ان أقوم بالتوقيع على ما جاء به حتى لا يؤذي ابنتي «داليا»، هذا الكتاب أريد تسميته «ليلى أليتش.. الحقيقة المُرّة»، ليعلمَ جميع مَن أحبني وحرص على متابعة أخباري أنّ ما كُتب زيفٌ ولا يعيش على وهم ذلك الكتاب.

مع مودتي..

ليلى صفوت أليتش..

سراييفو 6-6-2008

يترك مقداد الرسائل جانباً ويبدأ بفتح الملفات، صدم من هول ما قرأه.. رسائل غرام بينها وبين المطرب جمال، وكذلك صور لها في مخيم لاجئين، وأمور أخرى يجهلها.

قبل أن يقرّر قراءة ما كتبته من مذكّرات شخصية، وقبل أن يهمّ بالذهاب نحو السطر الأول.. فتح كتابها المنشور في 9-10-2008 أي بعد وفاتها بثلاثة أشهر، ووضع على الفصل الأول ثم أخرج أوراق الفصل الأول من أوراق الملف ليعاين ويقارن بينهما

* * *

جمهوري العزيز..

أعرف مدى حزنكم عند علمكم بما أصابني، واختفائي الذي أجبرت عليه ولم تكن لي حيلة فيه، بسبب حالتي المرضية السيئة، لكنّ تلك مشيئة الله التي ينبغي ألا نعترض عليها ونصبر أنفسنا كثيراً لنستطيع مقاومة شقاء

بيت الحكايات
maktabbah.blogspot.com

الحياة، ونذكرها أننا عشنا حياةً حُلوةً مليئةً بمحبتكم واهتمامكم.

كتب لكم في هذا الإصدار «سيرتي الذاتية» والتي أتمنى أن تترك أثرها الإيجابي في حياتكم.. وأن تثابروا وتؤمنوا بذواتكم وتكافحوا للوصول إلى أهدافكم فالحياة دون هدف لا قيمة لها، هل تعلمون وأنا أعلم أن حياتي شارفت على الانتهاء.. أشعر أنني فخورة بنفسي.. لقد حققت حلمي ووصلت لما أردت الوصول إليه، بينما هناك الكثير والكثير مَن انتهت حياتهم دون أن يعلموا ما الهدف من وجودهم في الحياة أو ما يجب أن يصنعوه، لا أودُ أن أطيلَ عليكم سأخبركم..

www.maktabbah.blogspot.com

معظمكم يعلم تاريخ مولدي.. يوم 3-2-1978.. في يوغسلافيا «والتي تفككت لاحقا»، حيث كان أبي يعمل هناك في مجال تجارة الأخشاب بينما أمي ربة منزل.. كنت الطفلة الأولى لهم بعد ثلاثة أولاد هم عزت ومختار وعبد الله.. حظيت بمعاملة مختلفة عن أشقائي بحكم أنني الفتاة الوحيدة لأبي الذي أغدق عليّ بالهدايا والاهتمام.. كذلك أمي التي كانت هي وحيدة من بين ستة أشقاء.. فكنت أنا لها الابنة والشقيقة أيضاً، كبرتُ وسط جوّ أسري متزن.. درست وتفوقت خاصة في مادة الموسيقا.. أحرزتُ العديد من الجوائز في الغناء وعزف البيانو.. حتى عام 1991.. تغيرت وانقلبت حياتنا رأساً على عقب عندما قرر أبي أن نسافر إلى سراييفو تلك المدينة التي ولد فيها هو وأمي.. مكان أجهله ولا أعلم عنه شيئاً سوى أنه مسقط رأس أسرتي.. باع أبي كلّ ما يملك.. وشدّ الرحيل إلى هناك ليبدأ من جديد.. لم يعرف أحد لماذا أقدم أبي على تلك الخطوة.. لكن بعد أن كبرتُ.. علمتُ جيداً أن ما قام به لحمايتنا.. وأن نكمل حياتنا دون «تعب وعناء»، هناك انضممتُ إلى مدرسة متواضعة.. لم أستطع مواصلة ممارسة هوايتي في الغناء وبكلّ صدقٍ أهملتُ الفكرة وبدأتُ أهتمُ بمساعدة أمي في تدبير شؤون المنزل.

لم نطل البقاء في سراييفو كثيراً، ففي عام 1992 قرعت الحرب الأهلية طبولها، عاد أبي ليبيع كلّ ما يملك من أجل أن نذهب إلى اليونان.. هناك المأمن.. كما كان يردد.. لم تكن رحلتنا سهلة قطّ، اضطررنا لركوب باص

مزدحم.. ثم السير عبر مدينتين.. وبعد ذلك الركوب على ظهور الحمير.. لنعبر الحدود كمتسللين.. أذكر أنّ أبي خرّ ساجداً عندما وصلنا إلى الحدود اليونانية.. كان خائفاً بشدّة أن يحدث لنا مكروه.. لكن أمي كانت تشدّ على أزره وتردّد.. «لا تقلق.. الله معنا لن يتركنا..».. وبعد مفاوضات طويلة مع السلطات اليونانية.. دخلنا كلاجئين.. هناك بدأت حياتي الجديدة.. اختلاف الثقافات والأفكار.. ومنها انتقالي إلى الخليج.. حيث ابتدأت قصة جديدة ومسيرة لم أتوقعها قطّ.. لكنني سعيدة وأنا أرى نفسي بقلوب كثيرين منكم.. وهل هناك أجمل وقعاً من أن تبقى كذكرى رائعة في قلوب من يحبونك ومن تحبّ!

يقفل مقداد الكتاب.. يخرج الفصل الأول من الكتاب الآخر..

***

«ليلى أليتش.. الحقيقة المرة»

أهلاً جمهوري العزيز.. أعلم مدى صدمتكم وأنتم تكتشفون زيف ما قرأتم سابقاً، لكن.. يجب عليكم أن تعلموا أمراً واحداً مهمّاً أنّ كل ما قمتُ به كان لهدفٍ.. ستدركونه جيداً عندما تقرؤون هذه السطور. أنا الآن مجرد اسم يُردّد.. فالمرض هزمني.. بعد إن كنتُ أظنّ أن لا أحدَ يهزم «ليلى» بسهولة.. التي امتلكت بجمالها المختلف وصوتها الشجي، قلوب مئات الألوف بين أبناء الوطن العربي الذي لا أنتمي إليه.. ولم أشعر يوماً من الأيام أنني منتمية إليه.. فأنا ابنة سراييفو.. الأرض الطاهرة التي ارتوت بدماء آلاف الشهداء.. أفتخر أن أموت هناك.. بعيداً عن وسائل الإعلام التي «إن كنت بينكم» ستتسابق على نشر أخبار مرضي.. وبعضها يستطيع وبكل دناءة وخسة أن ينشر صوري وأنا بتلك الحالة التي يرثى لها.. ليحققوا أعلى رقم من المبيعات.. لكنني وكعادتي «لا أهزم».. هربت إلى هنا لأعيش مع ابنتي بعيداً عنهم وعن أكاذيبهم.. جميعكم تعلمون أنني من مواليد فبراير 1978.. ولدت في بلغراد.. عاصمة يوغسلافيا التي تفككت لاحقاً.. من أب لم يمنحني أيّ معنى للتعامل الحسن وأمّ كانت تتحمّل ضربه وإهاناته

maktabah.blogspot.com

اليومية.. وأشقاء هم «مختار وعزت وعبدالله» لا أراهم إلا في ساعات الليل الأخيرة.. فهم يهربون من جحيم ذلك الرجل الذي يضع حمله والإهانات التي يحملها كماسح أحذية في أحد الشوارع الخلفية في بلغراد فوق رؤوسنا نحن أبناءه، لا ألومهم.. فهروبهم وان كان محفوفاً بالمخاطر.. لكن أقل خطورة من مواجهة رجل.. يرى أننا سبباً في الفقر المدقع الذي يعيش فيه، بالمناسبة أنا الكبيرة بين أخوتي.. لذلك كنت الاكثر تعرضا للأذى.. وأحيانا أتصدى للضربات التي تتلقاها أمي الضعيفة.. كنت خائفة عليها من قسوة ضرباته، لا أستطيع أن أصف لكم ما حدث لكن تمنيت أن أبقى على هذا الحال.. ولا أكون شاهدة على ما حدث في سراييفو عام 1991.. وذلك عندما قرر أبي أن نغادر إلى هناك بعد وعده أحد أبناء عمومته أن يوفر له عملاً يدر عليه الكثير من الأرباح وهذا ما حدث هذا فعلاً.. تحسنت الحالة المالية لأبي كثيراً وانشغل عنا.. أصبحنا لا نشاهده كثيراً.. وفي أبريل 1992.. دقت الحرب طبولها.. اختفى أبي.. بحثنا عنه ولم نجده، أخبرنا أحد أصدقائه أنه سافر إلى اليونان مع أحد أصدقائه. هنا علمنا أنه لن يعود إلينا.. تحملت أمي مسؤولية حمايتنا، غادرنا منزلنا وتوجهنا إلى مدينة سربرنيتسا التي كانت تحت حماية الأمم المتحدة وهي منطقة آمنة منزوعة السلاح.. لكن هذا الأمر لم يشعل الطمأنينة بداخلنا.. لأن الأعداء كانوا يبحثون عنا نحن البوسنيين لقتلنا.. كانت أمي تعمل طوال اليوم كعاملة نظافة في خدمة قوات الأمم المتحدة المنتشرة في المنطقة من أجل الحصول على الطعام والشراب.. بينما كنا نحن نبقى طوال اليوم جالسين في المنزل. نتابع أخبار الحرب عبر المذياع، نفزع من أصوات إطلاق النيران أو مرور المركبات العسكرية.. كان أخي عزت يردد.. أشعر أننا سنموت هنا، بينما كنت أرد عليه وبكل ثقة لن أقتل، سأموت ميتة طبيعية، فأنا قوية وشجاعة.

كانوا يضحكون علي، يعلمون جيدا أني أخاف من أي صوت ويخفق قلبي بسرعة إن لمحت ضوء في الظلام، حتى جاء اليوم الذي لو كان بيدي لمسحته من ذاكرتي، 6 يوليو.. 1995.. كنت برفقة أمي لزيارة أحدى صديقاتها، بينما أشقائي يلعبون كرة القدم مع أقرانهم، فجأة ودون

سابق إنذار دخل علينا زوج صديقة أمي، طلب من الجميع المغادرة فوراً، القوات المعادية اقتحمت المكان وبدأت بقتل كل من يقف أمامهم.

www.maktabbah.blogspot.com

أمي كانت تصرخ «أبنائي.. أين هم؟».. حاول أن يخفف من خوفها أنهم شبان قادرون على حماية أنفسهم.غادرنا فوراً للاختباء في الغابات المجاورة.. وصل عددنا إلى 15 ألف شخصاً.. عشنا في حالة بائسة للغاية، كأننا حيوانات.. نأكل أوراق الشجر ونشرب من مياه. الله العالم إن كانت صالحة أم لا.. نمشي ببطء خوفاً من الألغام التي زرعت بشكل عشوائي.. يسير بعضنا خلف بعض نمشي على الخطوات ذاتها.. ونحاول الابتعاد عن الشوارع.. فالقوات المعادية توجه الرصاص باتجاه أيّ جسد يتحرّك تراه أمامها.. الرعب يعترينا جميعاً.. الرجال يرتجفون خوفاً.. والنساء كذلك يضعن أيديهنّ على أفواه أطفالهنّ حتى لا تسمع أصوات بكائهم.. بينما أمي تحتضنني وتردّد.. «ماذا حدث يا ليلى لأشقائك».. حالتها تدمي القلب.. وازداد خوفها بعد أن علمت من أحد الناجين من المذبحة الكبرى أن القتلى بالآلاف ومن نجا يعدون على الأصابع.

www.maktabbah.blogspot.com

في صباح يوم 25 يوليو.. أعلن رسمياً عن انسحاب القوات المعادية من المكان.. تاركين خلفهم عشرات المقابر التي استعمل من أجلها الجرّافات.. ليتم إخفاء فعلتهم الشنيعة، عدنا إلى بيتنا.. وجدناه محترقاً ومحطّماً.. لا أثر لأشقائي أو حتى أصدقائهم.. حتى الملعب الذي ذهبوا إليه حُفر مكانه خندق ورُميت به مجموعة من زجاجات النبيذ الفارغة.

كانت أمي تذهب إلى قوات الأمم المتحدة لتسألهم عمّا حدث لأبنائها، لكن «لا مجيب».. فهم سئموا مئات الأسئلة من ذوي المفقودين. يخرج جنرالهم ليقول لهم: لم نشهد ما حدث.. كيف لنا أن نعرف من قتل ومن نجا!..

أصبحت أمي تبحث بين الجثث وفي قلبها بصيص أمل.. وتسأل الناجين.. لكن لا إجابة تريح قلبها الجريح.. فجميعهم لا يتذكّر ما حدث أو لا يودّ تذكّره أو يعرف ولا يودّ أن يقول لها حتى لا تنهار أمامه.. ما مرّ

أشبه ما يكون بالجحيم.. الذي بقي حتى الآن عالقاً في أذهان جميع سكان «البوسنة والهرسك» فهي جريمة وإبادة بشرية لم يشهدها التاريخ إلا في الحروب العالمية فقط.

بعد أسبوع ممّا حدث.. في أثناء جلوسي في بحيرة قريبة من منزلنا «المحترق» اقترب مني جندي يعمل مع الأمم المتحدة اسمه «فان دونل».. ليسألني

- أنتِ ليلى ابنة عائشة التي كانت تعمل بالنظافة لدينا صحيح ؟

www.maktabbah.blogspot.com

قمت بهزّ رأسي دون النظر إليه.. كان تفكيري يذهب إلى كيفية الخروج من هذا المكان الذي أصبح أشبه بمقبرة كبيرة.

عاد ليسألني مجدداً..

- تمتلكين قلباً قوياً؟

نظرت إليه بابتسامة مزيّفة..

- هل أصبح لنا قلب بعد كل ما حدث؟ لقد أصبحت جاهزة لانتزاع قلب أي جندي من القوات المعادية دون رحمة أو تردد.

هزّ رأسه.. ثم سأل ؟

- هل يهمك معرفة مصير أختك؟

كان يتوقع أن يجد مني ردة فعل «الإنسانة الملهوفة».. لكنني كنت على يقين أنهم قتلوا.. فالقنابل والرصاص انهالت عليهم كالمطر لا يمكن لأحد أن ينجو منها.

جاوبته..

- ربما.. لكنني على ثقة أنهم استشهدوا على يد الأعداء.

دون مقدمات بدأ بسرد ما حدث:

maktabbah.blogspot.com

حاصرت القوات المعادية المكان بقيادة راتكو ميلادتش، كان أشقاؤك في الملعب الرياضي مع آخرين، أجبرتهم القوات المعادية على التجمع بعد أن تم فصلهم عن النساء والأطفال، حاولوا الهرب لكنهم لم يستطيعوا، قبضوا عليهم وقاموا بشد وثاقهم ووضعوهم في شاحنة نقلتهم إلى شمال سربرنيتسا.. مع أكثر من ألف شخص.. وضعوهم بجانب هذا الغدير الذي تجلسين بجانبه الآن.. طلب منهم الاصطفاف وتم إطلاق النار عليهم جميعاً.. لم يتوقف إطلاق النار حتى تأكدوا من مقتلهم جميعا.. عندما توقفوا.. كانوا يسألون.. «من على قيد الحياة سنساعده».

www.maktabbah.blogspot.com

وعندما يرد أحدهم «أنا» يقتربون منه ويطلقون رصاصة على رأسه..

www.maktabbah.blogspot.com

عندما تأكدوا من موتهم جميعهم جلبوا مجموعة أخرى وكرروا الأمر نفسه.. قبل انسحابهم استخدموا الجرافات لحفر القبور ورمي الجثث داخلها، بينما قمنا نحن بدفن بعض الجثث التي بقيت مرمية على أطراف الغدير ولم ينتبه لها هؤلاء السفاحين.. لقد تعرفت على جثث أشقائك لقد كانوا مرميين بعيداً، يبدوا أنهم حاولوا الهرب مجدداً لكن الرصاص لاحقهم ولقوا حتفهم بعد ذلك..

قاطعته..

- هل أنت متأكد أنهم أشقائي؟

ينظر إلى الغدير ويلقي حجرا كان بجانبه..

- نعم كانوا يلعبون معنا كرة القدم وأخبروني ذات مرة أن أمك عائشة تعمل معنا.. أنا آسف لإخبارك بهذا الأمر.. لكنني لم أستطع أن أحتفظ بالأمر بداخلي.. وأنا أرى والدتك بتلك الحالة السيئة والصعبة.. كل يوم تزورنا لتسألنا عن مصيرهم، لذلك وجدتها فرصة جيدة لإخبارك.. فأنت لديك قلب قوي قادر على تفهم هذا الأمر

www.maktabbah.blogspot.com

وقف مستعداً للرحيل.. قلت بصوت خفيض:

لماذا لم تدافعوا عنهم؟!

لم يُجب سؤالي.. صمت لدقائق، قبل أن يجهش بالبكاء كطفل، بدأ بالابتعاد أكثر.. لكنني هنا صرخت بأعلى صوتي

- توقف. أريد أن أطلب منك شيئاً واحداً فقط.

نظر إلي..

- أرجوك، لا تخبر أمي بما حدث.. دعها تحتفظ بأمل أنهم على قيد الحياة.. فحالتها الصحية لا تتحمل أكثر.. وأخشى أن يقتلها هذا الخبر السيئ.. أنا غير مستعدة الآن للعيش وحيدة أبداً، فهي الأمان، والحضن، هي الدفء والسكن، هي القلب والوطن.. الوحيد الذي بقي لي بعد أن خسرت كل شيء، كل شيء حتى وطني!

ردّ بصوت أجش..

- أعدك.. لن أخبرها!

بقيت ساعات أمام تلك البحيرة.. بدأت أشمّ رائحة أشقائي.. أتحسس الأرض بجانبي.. فربما دُفن أحدهم بها.. كنت مبتسمةً وأخبئ الدمعة.

«أنتم يا أشقياء.. أصبحتم شهداء، ستذهبون إلى الجنة، سأظلّ أنا أقاتل في هذه الحياة التي ترميني يميناً وشمالاً..أتمنى أن أكون بجانبكم يوماً من الأيام، لكن ليس الآن، نعم أعترف أنّ خوفي من الحياة يعادل خوفي من الموت، لكن.. أريد أن أرى إلى أين سيقودني القدر..».

* * *

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

هنا أثينا.. حيث الحياة الجميلة الهادئة، لا أخبار حروب، لا مجازر، لا مشاكل.

استطاع أبي وبسرعة قياسية من مشاركة صديق يوناني تجارة

maktabbah.blogspot.com

الأخشاب.. استعاد عصره الذهبي، أغدق علينا بكل ما نتمنى، آه كم كانت حياتي جميلة ونقية وخالية من شوائب الأيام، أشقائي جميعهم دخلوا الجامعة. أما أنا فأحسست أن الغناء والموسيقا ليسا بقدري، بل كان اتجاهي مختلفاً.. كنت أريد العمل مع أبي، نعم في الأخشاب، قد تشعرون بالصدمة، لكن ارتباطي الوثيق به جعلني قريبة منه ومن أسراره. بدأت العمل معه في 1996 لا أذكر في أيّ تاريخ بالتحديد. لكنني كنت ذكية وسريعة البديهة، استطعت أن أسيطر على العمل كاملاً، لقد خفّفت على كاهل والدي الكثير. كان يفتخر بي أمام رفقائه.. كنت أقلّده كثيراً حتى في مفاوضاته مع التجار الآخرين، كانوا جميعهم يشبهوني به حتى جاء ذلك اليوم المختلف، عندما أبلغني أبي أن هناك مفاوضاً خليجياً جاء ليحصل على شحنة من الخشب ليشحنها إلى بلده، أتذكر اسمه جيداً عبد القادر أحمد.. كان شاباً في نهاية العشرينيات.. أبيض طويلاً.. ذا وجه دائري وخدين ممتلئين، شعره ناعم قصير ومصفف بشكل جميل.يرتدي قميصاً أزرق وبنطلوناً أبيض.. أسنانه لافتة للنظر عندما يضحك ويبتسم، بصراحة إذا شرحت صفاته فلن أستطيع وصفه جيداً. أستطيع أن أقول إنه يشبه نفسه؛ لأنه أصبح مقياس الجمال لي، يتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة.

جلسنا نتفاوض.. أول مرة أتخلى عن شخصية أبي وأتحدّث بشخصيتي.. لذلك غلبني.. لقد استطاع أن يأخذ تلك الشحنة بسعر مثالي، لكنه عندما همّ بالدفع.. قام بوضع مبلغ إضافي وكتب رسالة صغيرة لي. «كنت أريد أن أجربك بالمفاوضات فقط.. لكنني لن أخذلك أمام أبيك، هذا المبلغ المناسب للشحنة، أمنياتي لك بحياة جميلة».

www.maktabbah.blogspot.com

غادر المكان وتركني مشوّشة لا أفكر إلا به، سألت أبي لاحقاً عنه فقال إنه يخلف والده الذي أقعدهُ المرض وبدا هو من يدير أعماله.. يأتي إلينا كل شهرين مرة واحدة للحصول على شحنة من الخشب.

www.maktabbah.blogspot.com

سأنتظر إذاً شهرين لرؤيته مجدداً، لكن هذا لم يحدث، لقد عاد بعد أسبوع، لم يكن يريد شراء الخشب لكنه كان يريد أن يعرف آلية عملنا

فقط، كان الأمر غريباً لأبي لماذا يريد أن يعرف طريقة عملنا؟

لكن لي، كان الأمر مفهوماً نوعاً ما فهو يريد أن يراني مجدداً، ولم تخب ظنوني، كان يسترق النظر لي كلما جلسنا معاً أنا وهو ووالدي وفي اليوم التالي، في أثناء جلوسي بالمكتب دخل علي، وأغلق الباب فجلس أمامي.. أتذكر ماذا قال جيداً..

آنسة «ليلى» سأخبرك بشيء.. لم أكن أؤمن في البداية ولا أصدق الحب الذي يجيء بغتة من النظرة الأولى، ولكنه تحقق لي عندما رأيتك فآمنت.. لقد زرع الله بداخلي محبتك،

حقيقةً يا ليلى، أنا لا أجيد الغزل.. لذلك ليس باستطاعتي أن أصف.. عيناك الزرقاوين، أم البياض النقي، أم خديك، أم ابتسامتك الجنونية! أم شعرك الأشقر الطويل الذي يشبه خيوط الشمس في نهار جميل، تستطيعين القول إنك وصفاتك ناديتني إلى هنا مجدداً، أنا أمام امرأة تجيد التجارة وإدارة الأعمال، امرأة مثقفة، ذات أسلوب جميل.. لا تحتاج إلى اختبارات مبدئية.. بل تحتاج إلى قرار.. كالتفاوض على صفقة مضمونة، أنا هنا أريد أن أحصل عليك بأي ثمن بالحلال.

www.maktabbah.blogspot.com

قبل أن أذهب إلى أبيك لطلب يدك سأوجه لك سؤالاً واحداً.

لم أستطع أن أرد.. فأنا في حالة صدمة!

أكمل حديثه..

- أتقدم إلى أبيك.. أم أنتظر قراراً منك؟

www.maktabbah.blogspot.com

وضعت كفي على وجهي.. لأغطي الاحمرار الذي انتشر في كل جزء منه من فرط خجلي.. ابتسم وترك المكان، لم أشعر أن قلبي يدق بسرعة مثل ذلك اليوم، لا أعرف ما كنت أفعله ساعتئذٍ، أتذكر أنني كنت أكتب على ورقة أمامي أكتب.. «نعم أنا موافقة»!

بعد أيام قليلة فاتحني أبي بالموضوع.. «عبد القادر يريد الزواج بك»..

maktabbah.blogspot.com

وافقت فوراً.. دون مقدمات أو انتظار فهذا الشابّ هو الفارس الذي يعتلي جواده وتعريفي لتلك الجملة يكمن أنه الرجل المهذّب ذو الخلق الناجح بعمله.. إضافة إلى أنه جميل.

حاول أبي إثنائي عن قراري.. فهو لا يريد أن أبتعد عنه، لكن بعد أن رأى إصراري ورغبتي.. وافق على مضض وقال لي:

- حياتك بيدك، لا أرغب أن أتدخل بها.. لكن إن خذلتك الأيام، تذكري عائلتك، هي بجانبك دائما وأبداً.

كانت لكلمات أبي وقعاً في قلبي.. أتذكرها دائماً.. عندما أتحدث مع الأصدقاء حول أهمية العائلة والأسرة.. أوصل أبي قراري إلى عبد القادر الذي قام بتجهيز حفل زفاف كبير في أثينا.. على الرغم أنني وعائلتي أيضا كنا في مزاج سيئ لغياب عائلته، فهو يرى أن قرار الزواج «يخصّه وحده» وأن عائلته ستعلم في هذا الأمر لاحقاً.

عشت مع عبد القادر أجمل أيام عمري.. كنا نتنقل من بلد إلى آخر.. نعيش شهر عسلٍ في كلّ مكان.. كان واضحاً وقنوعاً.. لم يؤثر فيه غناه.. لا يتعامل بغرور أو كبرياء أو يردد اسمه.. يحبّ أن يعيش على طبيعته.. كلما نظر إلى عينيّ ردّد كلمة: أنا محظوظ.. لا أصدق أنني حصلت على أجمل امرأة في العالم.

يهزمني بكلامه ونظراته.. معه تمضي اللحظات سراعاً.. في صباح كل يوم عندما أنهض واجده بجانبي نائماً.. أشكر الله على هذه النعمة التي تمنيت ألا تغيب عني أبداً.

مع مرور الأسابيع.. بدأت أشاهد في عينيه القلق مع كل اتصال يأتي من أسرته.. خاصةً والدته التي كانت تردّد أنّ «زينب» ابنة عمه تنتظره من أجل إتمام تجهيزات العرس.. كان يبلغني أنّ هذا الأمر لن يحصل أبداً.. خاصّة وإن القرار لم يأتِ منه أو منها.. بل من العائلتين.. لم أبالِ للأمر.. كنت أثق به وأعلم جيداً أنه لن يتركني أبداً.. بعد ثلاث سنوات جميلة عشت معه أحداثاً لا أستطيع أن اختصرها هنا.. وأريد أن احتفظ بها

بداخلي كإحدى الذكريات التي تنشر السعادة بداخلي.. حملت بعدها بفتاتي الجميلة «داليا» والتي أسماها هو على اسم أمه.. ولدت في قبرص وبالتحديد في ليفكوشا حيث كنا نقضي عطلتنا الصيفية هناك، أستطيع القول أنني شعرت بالغيرة منها بعض الشيء، خاصة وأن عبد القادر كان يضع كل اهتمامه بها.. كانت الحياة له.. أمرا خاصا جدا.. يسهر الليل معها إن بقيت واعية.. وينام إن نامت.. لكن وكما هي الحياة، لا شيء يستمرّ للأبد.. لا بدّ من متغيرات تحدث دون إرادتنا، أما لي فلا سعادة تستمر معي للأبد.

أتذكّر تلك الجملة التي نطق بها وهو يجلس بالقرب مني وهو في حالة توتّر شديد..

«أشعر أنني في ورطة»، يا لوقع هذي الكلمات في أعشار قلبي، لقد أخبرني عبد القادر أن والده علم زواجه مني.. وينبغي له أن يواجهه، اقترحت عليه أن نذهب معاً إلى بلده ونجلس مع والده، ربما يشعر بما نشعر به، نظر إليّ نظرة لم أنسها قطّ.. قال بصوت حزين «لا تعرفين أبي جيداً.. هو لا يؤمن بالحب ولن يؤمن به أبداً.. فكيف إن كان على حساب عائلته».. أخبرني أنه سيعود إلى وطنه للجلوس مع والده ومحاولة إقناعه أنه يريد البقاء مع زوجته وابنته، كان يعدني أنه سيعود.. كنت أثق بعودته.. لكنني كنت خائفة مما تضمره لي الأيام!

غادر عبد القادر للجلوس مع أبيه.. كان على اتصال معي، يخبرني أنه سيخبره غداً.. ثم يأتي الغد ليقول إنّ الأمر تأجّل،واستمرّ على هذا الحال قبل أن تنقطع اتصالاته لم أستطع الوصول إليه، لكن بعد أيام وصلني ظرف يحوي مبلغاً مالياً كبيراً ورسالة كُتب فيها

www.maktabbah.blogspot.com

«كان لديّ أملٌ أن يقتنع والدي لكن لم يحدث شيء، أصبحت أمام طريقين.. إمّا أبي وأمي.. أو أنتِ وداليا، لكنّ رضا الله من رضا الوالدين، لذلك سأختارهما الآن وسأحاول أن أقوم بتنسيق زيارتك أنتِ وداليا إليهما فربّما يتودّد قلبيهما لكما..».

maktabbah.blogspot.com

لم يصلني بعدها أي شيء منه، كل يوم يمرّ بطيئاً أفقد الأمل تدريجياً، بدأ سواد رحيله يسيطر على أفكاري، حتى جاءت أكثر الرسالات سوءاً في حياتي والتي أكدت شعوري المرّ.. دون مقدماته الجميلة كتب

«أنا آسف.. لقد قررت الانفصال عنك، أتمنى ألا تخبري داليا بما حدث.. لقد خذلتك وخذلتها وخذلت نفسي، غداً سأتزوج ابنة عمي..هو قرار لا يخصني فقط بل يخص عائلتي، لقد استسلمت أمام ضغوطهم، دمعة أمي، صمت أبي يثقلان كاهلي.. لا أعلم كيف أصف لك هذا الألم الذي يعتصر قلبي، سامحيني أرجوك، لقد هزمت ولا أستطيع الوقوف مجددا.. وداعاً.. قُبلاتي لمن أسرت قلبي وروحي داليا.. إذا كبرت أخبريها أن أباها مات حتى لا تشعر بالخزي والعار ممّا فعلت بها وبأمها الحنون».

www.maktabbah.blogspot.com

دخلت في نوبة اكتئاب استمرّت أياماً طوالاً قطعتْ تواصلي مع الجميع، أعيش نوباتِ بكاءٍ مستمرة.. لقد شعرت أول مرة «بالخذلان».

مؤسف جدًا أن يتخلى عنك من اعتبرته كلّ شيء في لحظة، إنها المرة الأولى التي شعرت كيف يتساقط الناس من أعلى قمةٍ وضعناهم فيها، الخذلان ليس أمراً بسيطاً لننسى.. هو جرح لا يلتئم مطلقا، خاصة إن جاء من الأقرب لك من روحك.

علم أبي بما حدث.. اتصل وطلب مني العودة إلى اثينا أنا وداليا من فورنا لنعيش في منزل أسرتنا.. لكنني رفضت، كنت يومها أقيم في سلطنة عمان، بلاد رائعة لا يوجد بها إزعاج أثينا أو زحام بانكوك أو تلوث مومباي، دافئة في كل شيء.. والأجمل طيبة شعبها التي دفعتني أن اتخذ قراراً بالعيش هنا، كذلك أحسست أنني يجب أن أعتمد على نفسي وأعيش تجربة حياتية جديدة برفقة «داليا».

أكملت تعلم اللغة العربية، أصبحت أجيدها بطلاقة الأستاذة التي علمتني إياها اسمها مروة، لقد علمتني أيضا الغناء، أتذكر عندما قلدتها وهي تغني..

«إني أتنفس تحت الماء.. إني أغرق أغرق أغرق..»

maktabbah.blogspot.com

صدمت مروة.. طلبت مني ترديد الأغنية.. قمتُ بإعادة غناءها عشر مرات.. وقفت وهي تصفق.. قالت

لديك صوتٌ يلامس الروح.. يحاكي النفس، يطرب الأذن، صوتك يجب ألا يبقى طي الكتمان، يجب أن يسمعه كل العالم، ينبغي أن ينطلق ليعانق السماء.

فتحت مروة طريقاً جديدةً لي وهو الغناء، الذي تركته من أجل الأخشاب.. لكن يبدو أن القدر كتب لي العودة إلى تلك الخانة، أنا سعيدة فهي من جمعتني بكم فثمة عالم قَدَرَ لأعيننا أن تراه مصادفة!

* * *

«ليلى أليتش.. الحقيقة المُرَّة»

في خيمة اللاجئين على الحدود البوسنية – الكرواتية.. كنا نعيش هناك في خيمة صغيرة لا تقاوم هبوب الرياح أو الأمطار، لكن لا حلَّ لدينا؛ فليس لدينا منزلٌ سوى تلك الخيمة الصغيرة.. ننتظر وجبات الطعام من الصليب الأحمر. أمي لا تستطيع النوم فهي تفكر بأبنائها.. أما أنا فكنتُ أفكر في الغد، ماذا سيحدث لنا مجدداً، أخشى أن تواصل الأيام مفاجآتها المُرَّة وأجد نفسي وحيدة في هذا المكان المخيف. كنت أراقب أمي يومياً، أطمئن أنها بخير، أعترف لكم كنت أحبُّ نفسي كثيراً، فمراقبتي لها كانت للاطمئنان أنها ستبقى بجانبي تحميني من الآخرين؛ لأنني فقدت الثقة بهذا العالم الذي وجدت فيه قلوباً من حجر، قلوباً لا تعرف طريق الرحمة أو العطف.

حتى جاء اليوم الذي انقلبت به حياتي رأساً على عقب. حضر «جلال الدين» ذلك الشابَ الذي يعمل مع إحدى الجمعيات الخيرية، يخبرني أنه يستطيع إخراجي من الفقر والعوز الذي أعيش فيه، وعندما سألت كيف أفعل ذلك أخبرني أن هناك مجموعة من الأثرياء العرب يرغبون الزواج من فتيات صغيرات في مثل عمري.. وافقت وطلبت منه أن يسرع في إيجاد

maktbbah.blogspot.com

زوج لي، أخبرني أن الأمر سهل للغاية ففتاة مثلي بعينين زرقاوين.. بخدين يتوسطهما غمازة وشامة.. وشعر أشقر.. هي هدف لهم كلهم.. لكن سيبحث لي عن الأكثر ثراءً من بينهم.

رحل وتركني أفكر بما قاله.. هل أقوم ببيع نفسي بحثاً عن الأمان؟ هل وصلت إلى هذه المرحلة السيئة؟ أن أرخص هذا الجسد ليمتلكه رجل لا أعرفه ولم أره ولا أعرف عنه شيئاً؟ وفي الوقت ذاته تتضارب الأفكار وأقول لكني سأجد الأمان والاستقرار وهذا ما أبحث عنه، وسئمت من انتظاره، بدأت أخاطب نفسي باستمرار.. الجاد والعزَ والسعادة تنتظرك يا ليلى.. تعساً لأيام التشرّد والفقر والعوز، لتبتسم لنا الحياة.. لنهرب بعيداً.. حتى لا يستطيع الحظ العاثر من إمساكنا مجدداً، حان الوقت لأن أعيش أحلامي السرمدية.. وأودّع البؤس!

عاد جلال الدين بعد أيام قليلة ومعه رجل ذو لحية خفيفة.. تجاوز الخمسين من العمر،أسمر يرتدي نظّارة طبية، بطنه كبيرة جدّاً، يضع في فمه عود ثقاب ليعبث بالفراغات بين أسنانه المتحطّمة والتي لم يتجاوز عددها 6، دخل الخيمة، وقعت عيناه عليّ، وجدته في حالة ارتباك وبدأ بدفع جلال الدين وهو يردّد: «أريدها.. ادفع هيا.. لننهي هذا الأمر بسرعة»!

www.maktabbah.blogspot.com

طلب جلال منه الهدوء حتى يستطيع الحديث معي ومع أمي..

أخبرنا أن الرجل اسمه عبدالقادر هو يعمل في تجارة الأغنام، يستطيع أن يؤمن لي حياة رغيدة، أخرج من جيبه مبلغ 3000 دولار أمريكي سلمها أمي.. قال جلال «هذا المبلغ لأمك أمّا أنتِ، فستحصلين على مبلغ مضاعف بعد الزواج».. رفضت وطلبت أن أحصل على المبلغ قبل الزواج ترجم له، وشعر بضيق لكنه سرعان ما أخرج مبلغ آخر كان 2400 دولاراً. أخذتهم ووضعتهم في جيبي، أخرج ورقة وقلم وقام بكتابة عقد بيننا وقامت أمي «التي لم أشعر أنها مهتمة بما يجري» وأنا بالتوقيع عليه والبصمة (العقد مرفق مع هذا الملفّ)، بعد أيام قليلة.. بدأت استعد للمغادرة، جلست إلى جانبي أمي للحديث معها، لكن عقلها وقلبها مشغولان بأشقائي..قلت لها:

maktabbah.blogspot.com

- أمي يجب أن تطوي ملف أشقائي، لقد مات الآلاف إذا كان مصيرهم الموت فهم الآن في الجنة.. وإذا كانوا أحياء.. فستلتقين بهم قريباً إن شاء الله، لا تقتلي نفسك بهذا الحزن والبكاء المتواصل.

مدّت يدها لتشدّني بقوة من شعري.. كانت تصرخ

- ليلى أخبريني هل تعلمين شيئاً عن أخوتك أنا لا أعلمه.. هيا أخبريني؟

كنتُ أصرخ من الألم أطلب منها أن تبعد يديها دون نتيجة، شعرت بالخوف، إذا قلت لها فسيحدث لها مكروه وسأضطر لتأجيل سفري مع زوجي عبد القادر، أقسمت لها أنني لم أسمع شيئاً عنهم، تركتني لكنّها قالت شيئاً كان كالسكين الذي طعن قلبي.

- أنتِ محاسبة على قسمك، لن أسامحك إن كنتِ كاذبة أبداً.. أعلم أنك تخفين شيئاً عنّي، ارتباكك يقول لي ذلك.. لكن سأدعك ترحلين،لا تريني وجهك مجدّداً، ارحلي.

تركت المكان كنت بحالة من الصدمة، أرتب شعري.. وأحاول مسح دموعي، كان عبد القادر ومعه جلال الدين ينتظراني خارج المخيمات،

غادرنا إلى المطار،ومنها إلى بلاده، في الطائرة تحدّثت إليه واكتشفته جيداً، هو إنسان لا يجيد لغة التواصل أو الحب، يعاني الكثير من الأمراض، وجدته يأخذ عدداً من الأدوية ذات الألوان المختلفة.. يا لهذا الحظ!

عند وصولنا إلى بلده.. ذهبنا إلى منزله، فتح الباب توقّعت أن تكون تلك قلعتي التي سأعيش بها وأحكمها، لكنني وجدت امرأتين تجاوزتا الأربعين من العمر، ينظران لنا وبيد أحداهما مقشّة والأخرى حذاء، وقبل أن يلقي التحية عليهنّ تهجمتا علينا بالضرب المبرح دون رحمة، كان الأمر صادما وغريبا أنا لا أعرف من هما،علمت بعدها أنهما زوجتاه.. أنا الزوجة الثالثة لهذا الرجل غريب الأطوار.. صدمت كذلك أنّ لديه من الأبناء أربعة عشر!!..

لقد دخلت إلى معسكر مجنون.. الأبناء يشاهدوني بنظرة مريبة وغريبة..

maktabah.blogspot.com

الفتيات يحاولن لمس عيني للتأكد أنني لا أرتدي العدسات، بينما تحاول أخريات معرفة الكريمات التي استخدمها للحصول على هذه البشرة البيضاء، فتاة منهم كانت تجيد اللغة الإنكليزية، اسمها «لولوة» ذات عينين متسعتين وأنف وفم صغيرين.. كانت تساعدني على فهم ما يقولون وتعلم بعض الكلمات العربية،هي الإنسانة الطيبة الوحيدة التي تعرفت عليها في هذا الجحيم الذي دخلته، كنت كلما أشاهدها اسأل.. «لقد شاهدتك سابقاً.. لكن لا أعلم أين».. الآن علمت أنها تذكرني بشخصية كرتونية شاهدتها في صغري عن فتاة طيبة تساعد الجميع، هي كذلك. لكنّ أمها التي تسمى «خيرية» كانت قاسية كانت تضربني دون سبب وتطلب من لولوة الابتعاد عني، بينما الزوجة الأخرى اسمها «كفاية» فكانت تلقي الكثير من المسبات عليّ، تخبرني «لولوة» ما تقول.. تردد كلمات مثل «المشعوذة».. «عديمة الأصل».. وكلمات أكثر بذاءة.. لا أستطيع أن أكتبها هنا احتراماً للقارئ، أما عبد القادر، فكان يخاف منهما، ولا يظهر قوته إلا عليّ، فأنا الغريبة التي لا ظهر لي ولا سند يحميني من بطشه وبطش زوجاته، كان يحاول دائماً أن يظهر رجولته التي لم يستطع إظهارها أمام زوجتيه أمامي فقط.. يعاملني بطريقة سيئة جداً.. وعندما سألته ذات يوم عن سبب عدم إخباري بأنه متزوج قال بكل وقاحة.

- لماذا تريدين معرفة ذلك.. لقد اشتريتك بمالي.. أنتِ كالخادمة.. يجب عليك إطاعتي وإطاعة خيرية وكفاية، إذا علمتُ أنك أسأت معاملتهما، فستدفعين الثمن غالياً!

لم أعرف ماذا أفعل أو كيف الهروب.. فأنا في بلاد غريبة عليّ، لم أخرج من المنزل قط، أعيش بالقرب من امرأتين يودان قتلي.. ورجل يعاملني كجارية لديه، كنت أتخيل نفسي مثل «ساندريلا» لكن دون حذاء أو أن يطلب مني العودة قبل الثانية عشرة مساء، أنظف المنزل، أخدم الزوجتين والأطفال.. آه كم كانت حياة سيئة، وأسوأ منها عندما أجد زوجي وهو يتكلم عن الدين والأخلاق أمام عائلته وأنهم يجب أن يقتدوا به ويحسنوا التعامل مع الآخرين.

maktabah.blogspot.com

يقتدون بمن يا رجل.. فأنت مثال للدناءة والسوء.. من بين كل مَن في المنزل.. وحدها لولوة واصلت مواساتي والتخفيف عني.. هي تمتلك قلباً ابيضا لم أشاهد مثله في حياتي.. أرجو أن يكون هذا الكتاب بين يديها.. «لولوة أنتِ رائعة.. ومن يمتلك قلباً مثلك، يستحق أن يعيش حياة جميلة، كانت أمنيتي أن أرى عيادتك لكن لا أعتقد أن الوقت سيسعفني لتلك الزيارة»

في أحد الأيام كنت أغني كانت لولوة تقف خلفي، نظرت إليها فوجدتها اغرورقت بالبكاء.. تردد.. «صوت رائع.. رائع جداً».. لا أفهم ما كانت ترمي إليه إلا عندما اخذتني معها إلى مدرسة الموسيقى «مروة» ذات البشرة السمراء والعينين الضيقتين والأنف الكبير.. صوتها مزعج جداً.. أخبرتها لولوة عن صوتي.. طلبت منّي الغناء.

بعد أن انتهيت وجدتها في حالة ذهول.. نظرت إلى لولوة..

- من تلك الفتاة..

أخبرتها لولوة قصّتي.. بدأت ابتسامة كبيرة ترسم على محياها.. وكأنها وجدت شيئاً ثميناً!

طلبت أن أكرر زيارتي إلى هنا.. وعند عودتنا إلى المنزل سألتها فقالت إنها مدرسة تقيم بشكل مؤقت في هذا البلد لكنها تنتمي إلى سلطنة عمان.. تُعلّم من يريد أصول الموسيقى.

نظرت إلي لولوة وقالت: رغم أنني لم أر منها سوءاً، لكنني لا أحبها.

كانت لها نظرة ثاقبة وغير مريحة، أنا كذلك لم أشعر بالراحة تجاه تلك المرأة لكن بعد ذلك وجدت لديها منفذاً.. «الهرب من الجحيم»!

في إحدى المرات أخبرتني أن صوتي يستطيع أن يقودني نحو جني أموال لن أحلم بها.. كانت تحزك شيئاً بداخلي.. هو العيش براحة ورفاهية. قالت إن أمكنني الهروب من زوجي، فإنها تستطيع السفر معي إلى مسقط..

حيث ستهتمّ بأمري وستشرف على بداية تحقيق «أحلامنا معاً».

لكن شعرت بخيبة أمل عندما علمت أنه يحتفظ بجواز السفر الخاصّ بي.. هنا بدأت التفكير بطريقة أخرى فقالت: ليس أمامك سوى العنف!

بدأت بشرح مخطّطها بإثارة الفوضى في المنزل، حتى يتخلّص مني عبد القادر وأصبح حرّة.. في البداية لم أعر للأمر اهتماماً. لكن بعد أن تعرّضت لجملة من الضرب والشتائم منه ومن زوجاته وتمادى الأمر أن يضربني الأبناء، بدأت الفكرة تنمو بداخلي أكثر فأكثر، حتى قرّرت أن أثير الفوضى وكان هدفي الأول خيرية وكفاية. كان صباح يوم الجمعة، الجميع متواجد في المنزل، فرصة مثالية للبدء. وجدت خيرية وهي تعدّ لها فنجان قهوة بالمطبخ، اقتربت منها وضربتها بقوة باستخدام المقشّة التي ضربتني بها مراراً.. كانت الضربة على خاصرتها، جعلتها تقع أرضا من الألم، ثم أخذت القهوة الساخنة وقمت بسكبها على جسدها كانت تصرخ ألماً وتتأوه.. شعرت بنشوة المنتصر.. أول مره أقوم بضرب أحد.. لا أعلم لماذا تحوّلت بخيالي إلى أحد الجنود الذين اعتدوا على بلدنا المسالم، حضرت كفاية لتعرف ما يجري فقمت بصفعها بقوة قبل أن أنقضّ كحيوان هائج..اعضّها من أذنها وأترك جرحاً غائراً، ملأ الدم وجهي، جميع الأبناء الذين حضروا على وقع الصرخات شعروا بالذعر مني وهربوا إلا لولوة.. وقفت في مكانها.. تنظر لي بنظرة «شفقة» وكأنها تقول لي.. «أنا على علم بما يجري».. حضر عبد القادر.. وجد زوجتيه إحداهما واقعة على الأرض تتألم بشدة.. والأخرى تحاول إيقاف نزيف أذنها، اتجه نحوي لضربي لكن قمت بضربه بمقلاة ثقيلة على جبينه، فنزف دماً.. لقد بكى، أجل بكى عندما رأى الدم ينهمر من رأسه، ولم يتحسّس يوماً الأذى الذي يسبّبه لي أو يرأف بحالي أو ساعات الليل التي أقضيها بالبكاء.. وهو يعلم ذلك لكن لا يتحرّك ساكناً، فلا أسمع منه سوى صوت شخيره المزعج.

طردني من المنزل.. وردّد خلفي «طالق.. طالق.. طالق».. اتجهت إلى منزل مروة.. التي رحبت بي وطلبت أن نسرع في إجراءات الانفصال حتى نستطيع المغادرة، وبعد انتظار ستة أشهر ومفاوضات طويلة للتنازل

عن مؤخر الزواج وأيضاً تنازله عن القضية المرفوعة منه ومن كفاية حصلت على حريتي. كم كانت سعادتي غامرة يومها كنت أقفز فرحاً بعد علمي أنّ كل شيء انتهى، لكن تلك الفرحة لو تكررت مرة أخرى فلن أعيشها؛ لأن ما ينتظرني سيكون أمرّ.

غادرت برفقة مروة إلى سلطنة عمان.. كان المكان هادئا.. شعب بسيط.. يهدي لك الابتسامة دائماً.. شعرت بأمان افتقدته فترة طويلة.. أوصلتني مروة لمتعهد الحفلات محمود هاشم.. رجل قصير القامة يرتدي اللباس المحلّي. ولا يضع الكمّة على رأسه.. كان ينهر مروة بشدّة على عدم تسديدها مبلغاً اقترضته منه سابقا عندما ركّز النظر فيّ قال لها

- من هذه الجميلة؟

أخبرته بكل ثقة..

- من سأسدد قرضي بها.

طلبت منّي الغناء سمعني محمود ومثلما غيره، شعر بحالة الذهول وصفّق بقوة، مردّداً.. «يا جمال صوتها.. صوت ذو خامة مميزة ومختلفة..»

اتفق مع مروة أن يقوم هو بتنظيم الحفلات الغنائية والأعراس لي.. طلب منها أن تعلّمني اللغة العربية واللكنة الخليجية.

بدأت بالمهمّة فوراً، الأمر احتاج خمسة أشهر لأتعلم اللغة العربية وإجادة نطقها.. بينما حاولت اكتساب اللكنة الخليجية من المحيطين بي، ذهبت إلى محمود وأخبرته أنني أصبحت جاهزة للبدء.

..أتذكّر أول حفلة قمت بالغناء بها.. كانت في قاعة أعراس.. جميع من في القاعة صفق لي بقوة عندما انتهيت من الغناء، حالة إعجاب شديدة لازمتهم.. الفتيات تعلقوا بصوتي بشكلي أيضاً، بعد هذا الحفل. لا أعلم كم عرس أحييته وكذلك حفلات للجاليات والمناسبات الخيرية والاجتماعية. لقد كنت مثل الدجاجة التي تبيض ذهباً لمروة ومحمود. يكفي أن أخبرك أن مروة تركت وظيفتها للتفرّغ لإدارة أعمالي.. لقد تلقّيت عروضا للزواج

كذلك، لكن كانا يخبراني بضرورة عدم التفكير في هذا الموضوع حتى أستطيع أن أصل للقمة.

لكن تواصل طلبات الزواج دعا محمود لطلب يدي لم يكن بيننا أيّ حبّ لكنه يحاول أن يحمي «ثروته».. وافقت ولا أعلم لماذا.. ربّما لأنني أحسست أن هذا الرجل هو من يحميني.. حدث الأمر بسرية تامة، حتى أستطيع أن أجيب أي شخص يعرض علي الأمر.. «انني متزوجة».. وكذلك للحصول على الجنسية حتى تسهل أموري بالإقامة أكثر.. كان محمود لا يفارقني ويلازمني في كل مكان باستثناء حفلات النساء تتكفّل بالمهمة مروة، بعد أشهر من زواجنا اكتشفت أنني حامل كان محمود - الذي ظهر بوجه جديد لم أعهده - يريد أن يجهض الطفل.. لكنني رفضت وتعهّدت له.. إنه لن يتحمّل أي مسؤولية عنه، وافق على مضض.. ووقعني على أوراق تورّطني متى ما حاولت أن أورّطه في هذا الطفل..

عرفت لاحقاً إني حبلى بأنثى.. أسميتها «داليا» تيمّناً باسم الممرضة التي أشرفت على ولادتي، لم أكن أفكّر باسمها قطّ.. وعندما سألتني الممرضة عن الاسم قلت لها ما أسمك فقالت داليا.. ردّدت خلفها.. «هي داليا أيضا».

بعد ولادتها.. أصبحت مروة وكذلك محمود قلقان من انشغالي بتربية طفلتي على حساب عملي الجديد، فسارعت إلى جلب مربية على حسابها لكنّي رفضت وطلبت أن نتوقّف عن العمل فترة.. فأنا أريد البقاء بجانبها.. لكن وكما محمود.. أصبحت مروة هي الأخرى «بوجه جديد».. تنهرني بكلمات غير مفهومة وتمارس جملة من التهديدات أنها تستطيع إعادتي إلى عبد القادر والشهادة ضدّي.. كذلك تتهمني بالسرقة وأمور لم أتوقّع أن تصدر من تلك المرأة التي أظهرت مضموناً ملائكياً عند رؤيتي لها في المرة الأولى.

لا أحد يبقى على حاله.. كثيرون من تظهر حقيقتهم في أول «موقف» حقيقي. كانت مروة كذلك..بعد تفكير طويل قرّرت أن أترك داليا في عهدة المربية.. وأعود إلى عملي الذي بدأ يتسع أكثر فأكثر!

maktabah.blogspot.com

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

الغناء ودواليا.. هما الجديدان في حياتي، مروة استطاعت وعبر علاقاتها أن تجعلني أغني في بعض المناسبات الخاصة، على الرغم أنها كانت تعلم أنّ حفلات الزفاف ستجني منها هي أرباحاً طائلة لكنّها كانت تهتمّ جداً بمشاعري وتردّد علي.. «أريدك أن تستمتعي بما تقومين به».. حتى شعرت ذات يوم أنني أريد الانتشار أكثر، فقمت بالغناء في قاعات الأفراح الراقية.. وهنا بدأت شهرتي تكبر شيئاً فشيئاً.. الفتيات يندهشن من صوتي وكذلك وبكل تواضع من جمالي.. كان الأمر يفرحني.. شعرت أنّ هذا ملعبي.. انطلقت دون توقف، حتى أصبحت مروة غير قادرة على إدارة أعمالي فاستعانت برجل خجول للغاية اسمه محمود هاشم والذي ساعد في تنظيم أعمالي، وتوسيع أنشطتي.. كذلك طرح أول أغنية مسجلة في أستوديو.. والتي بلا شك استمعتم لها لاحقا وهي أغنية «إلى متى أنتظر» وهي من كلمات محمود وألحانه.. وبعدها نشأت قصة الحب الثانية في حياتي، وكانت معه.

خجله وحبّه الأطفال وكذلك إخلاصه كانت أسباب كافية لأن أرتبط به، وحدث هذا الأمر، سافرنا إلى تركيا لقضاء شهر العسل هناك أوضح لي ماذا يفكّر وكيف يستطيع أن يقودني إلى النجومية.. احببت أفكاره وطموحاته وعدم تفكيره بالمادة، بقدر ما كان يريدني أن أصل بصوتي إلى كل مكان ليعرفني الجميع ويعرف تلك «الدرة المكنونة» وهو اللقب الذي أطلقه وبقي ملاصقاً لي دائماً.

كان شهر العسل جميلاً للغاية، لكن عكر صفوه موقف واحد.. عندما شاهدت عبد القادر مصادفة في أحد المتاحف.. لكنه لم يتحدّث أو حتى ينظر من معي وكيف هي حالتي رحل بعيداً وكأنه يقول.. «طريقنا لن يلتقي أبداً».. بصراحة كنت أنظر إلى زوجته التي كانت بجانبه، كانت جميلة، هو محظوظ كذلك؛ فهي لم تكن بذاك السوء الذي اعتقدته من كلامه عنها، أتمنى له الحياة السعيدة أين ما حلّ وكان.

maktabah.blogspot.com

عدنا مجدداً إلى عمان.. بدأ محمود بتنفيذ ما خطط له. أغنية في البداية تبث في الإذاعات الخليجية.. فعملنا على الالتقاء بكبار الشعراء والملحنين، حتى حصلنا على أفضل كلمات ولحن من شاب طموح وصغير التقيناه مصادفة كان اسمه «الحارث» عرض علينا كلمات لحنها بنفسه منذ استماعي لها أحببتها فوراً، حتى محمود تحمس لها كثيراً.

الأغنية كانت عنوانها «يوماً لها».. وبعد عمل استمر أكثر من شهر على تسجيلها في أستوديوهات مسقط ودبي.. أصبحت جاهزة، سافر محمود كل دول الخليج العربي لإقناع إذاعاتهم ببثها ونجح في مسعاه، لم أتخيل ما سيأتي، بدأت الناس تسأل من هي ليلى، وكيف شكلها؟ فكان التفكير الآخر هو فيديو تصويري للأغنية.. وأيضاً مثلما فعل محمود في إقناع الإذاعات.. أقنع الفضائيات.. هنا حدث الزلزال.. الصحافة والإعلام أبرزت صورتي.. كانت تركز على الجانب الشكلي وليس الصوتي، هذا الأمر أزعجني بعض الشيء.. لكن محمود هوّن الأمر وقال «لا بأس.. سيعلمون جيداً أن صوتك خامة نادرة».. بدأت أتلقى الدعوات للغناء في دول أخرى، الكويت والبحرين والإمارات، كذلك في مصر وتونس والمغرب.. أصبحت أبتعد كثيراً عن داليا.. هذا أكثر أمر يؤلمني.. لكن هوّن الموضوع هو محبة الناس لي، وأعتقد أن الكنز الحقيقي الذي يخرج الإنسان به من الدنيا هو محبة الآخرين له، فسيبقى خالداً في الذاكرة.

***

«ليلى أليتش.. الحقيقة المرة»

الحفلات والأعراس لم تعد هدف محمود ومروة.. اللذين اتسعت مطامعهم وبدووا في التفكير بالتوسع.. فكان اقتراح مروة أن أطرح أغنية مسجلة ويتم العمل بها في أحد الاستوديوهات التي تتبع أحد من أهلها.. لكنهم كانوا يبحثون عن كلمات وألحان تكون بداية لانطلاقة قوية لي.. فكانت فكرة زوجي «المجنون» والذي سافر إلى اليمن.. وبدأ بشراء مجموعة من تسجيلات الأغاني القديمة، وبدأ بالبحث بينها حتى وجد

maktabah.blogspot.com

أن تشاركه ما يجني من أموال.. وهي ترى أنه بدأ بالاستفادة أكثر منّي بينما هي لا تحصل إلا على «القليل» جداً. جاء ذلك اليوم الذي وجدت الخزينة بغرفتي مكسورة وتم سرقة كل الذهب والأموال الموجودة بها صرخت بأعلى صوتي فحضر محمود الذي لم يتوتّر قط بل اتصل وبكل هدوء على الشرطة.

لقد أخبرهم أنه يشك بمروة لأنها الوحيدة التي تتردد على المنزل باستمرار.. لقد شعرت بصدمة كبيرة وهو يتهمها.. بل شعرت أنه وراء ذلك كله، بعد أيام أعادت الشرطة الأموال والذهب، مبينة أنه تم تفتيش سيارة مروة وعثر على المسروقات في الصندوق الخلفي.

رغم أنني أكره مروة.. لكن لم أرغب أن أراها خلف القضبان.. طلبت من محمود أن يتنازل عن القضية.. وافق «دون نقاش».. مرددا:ستنال جزاءها!

بعد أيام.. وجدت صورة مروة بالصحف مع عنوان كبير: «مديرة أعمال ليلى.. تسرقها»!

لقد دمّر سمعتها كلياً.. محمود كان ذئباً ماكراً.. الذي جلبته مروة إليها.. ليلتهمها.. ازداد خوفي منه، بدأت أفكر جدّياً، ربما أكون الضحية القادمة، لكنه جاوبني وكأنه يشعر بما أفكر به ويقلقني.. قال «لن أؤذيك أعدك بذلك، فأنا أعلم أنك الدجاجة التي تبيض ذهباً ولا يمكن التخلّي عنها أبداً».

كانت رسالته واضحة، أن أبقى خاضعة له أو أن أدفع الثمن غاليا

***

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

كل إنسان منا تمرّ عليه لحظات وذكريات حزينة، يودُّ لو أنّ الأيام تعود ليحاول بأي طريقة ممكنة أن يمنعها من الحدوث، أتذكر جيداً اليوم الذي

maktabah.blogspot.com

أن تشاركه ما يجني من أموال.. وهي ترى أنه بدأ بالاستفادة أكثر منّي بينما هي لا تحصل إلا على «القليل» جداً. جاء ذلك اليوم الذي وجدت الخزينة بغرفتي مكسورة وتم سرقة كل الذهب والأموال الموجودة بها صرخت بأعلى صوتي فحضر محمود الذي لم يتوتّر قط بل اتصل وبكل هدوء على الشرطة.

لقد أخبرهم أنه يشك بمروة لأنها الوحيدة التي تتردد على المنزل باستمرار.. لقد شعرت بصدمة كبيرة وهو يتهمها.. بل شعرت أنه وراء ذلك كله، بعد أيام أعادت الشرطة الأموال والذهب، مبينة أنه تم تفتيش سيارة مروة وعثر على المسروقات في الصندوق الخلفي.

رغم أنني أكره مروة.. لكن لم أرغب أن أراها خلف القضبان.. طلبت من محمود أن يتنازل عن القضية.. وافق «دون نقاش».. مرددا:ستنال جزاءها!

بعد أيام.. وجدت صورة مروة بالصحف مع عنوان كبير: «مديرة أعمال ليلى.. تسرقها»!

لقد دمّر سمعتها كلياً.. محمود كان ذئباً ماكراً.. الذي جلبته مروة إليها.. ليلتهمها.. ازداد خوفي منه، بدأت أفكر جدّياً، ربما أكون الضحية القادمة، لكنه جاوبني وكأنه يشعر بما أفكر به ويقلقني.. قال «لن أؤذيك أعدك بذلك، فأنا أعلم أنك الدجاجة التي تبيض ذهباً ولا يمكن التخلّي عنها أبداً».

كانت رسالته واضحة، أن أبقى خاضعة له أو أن أدفع الثمن غاليا

***

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

كل إنسان منا تمرّ عليه لحظات وذكريات حزينة، يودُّ لو أنّ الأيام تعود ليحاول بأي طريقة ممكنة أن يمنعها من الحدوث، أتذكر جيداً اليوم الذي

maktabah.blogspot.com

حضرت فيه مروة إلى منزلنا لتخبرني وتخبر محموداً أنها قررت الابتعاد والجلوس في بيتها مفضّلة أن تتزوج وتبني عائلة.. كان القرار «مؤلماً» لي ولمحمود لأنها كانت تعالج أي مشكلة نقع بها.. تتمتع بدهاء وأذن موسيقية فريدة، تختار أجمل الأغاني وتوقيت عرضها.. كنت أفاديها دائماً بـ «العقل»، أستعين بها في أيّ شيء لا أستطيع استيعابه.. كذلك هي من جعلتني أجيدُ اللغة العربية والغناء باللهجة الخليجية، كان من الصعب تعويضها.. لكن محموداً طلب مني أن نطوي صفحتها لأننا يجب أن نستمرّ ونكافح لمواصلة النجاح.

بعد أيام قليلة تسرّب خبر ابتعادها.. وبدأت الصحف بوضع أخبار وهمية.. أتذكر إحداها أنّ خلافا كبيرا وقع بيني وبينها وكذلك خبر أنها سرقتني، بكيت يومها بكاءً شديداً، قام محمود بالاتصال على الصحيفة وهدّد بمقاضاة من كتب هذا الخبر إذا لم يتمّ نفيه حالاً، لم أتوقع أن تحاول بعض الصحف بخلق إثارة من أكاذيب لم تقع. حاولت الاتصال مراراً على مروة بعد ما نشر.. لكن «لا إجابة».. حتى محمود ذهب إلى منزلها.. فأخبروه أنها سافرت، لم تكن كذلك، لكنها كانت لا تريد الالتقاء بنا، وأنا اكتب هذه السطور «عزيزتي مروة، الإنسانة التي وقفت في صفي دائما، التي علّمتني وساعدتني في ظهوري، التي بقيت معي في أحلك الأيام اشتقت لكِ جداً..أتمنى أن يقع هذا الكتاب بين يديك لتعلمي مقدار شوقي لك...مروة العزيزة أنتِ في قلبي دائما ولن أنسى معروفك».

بعد انتشار خبر ابتعاد مروة.. بدأ الكثير من مديري الأعمال التقدم بعروض لإدارة مشاريعي الفنية.. لكنني كنت ارفض.. كنت أرى محموداً قادراً على فعل هذا وحده.. وأيضاً لثقتي المطلقة به.. فهو يعمل من أجلي ومن أجل مصلحتي.. لم يفكر قطّ العمل لنفسه.

لا مجال للتوقف بعد مروة، عملنا بجهد كبير، أسهُمنا ترتفع يوماً بعد يوم.. أجري ارتفع كذلك، لم أهتم للمادة بقدر اهتمامي بانتشار اسمي وازدياد شعبيتي، لم أرفض أي دعوة لي، على الرغم من نصيحة محمود الذي كان يطلب مني الراحة لكن كنت أخبره أننا في البداية، لا يجب علينا

التوقّف أبداً.

أبي الحبيب.. لم يتركني قط.. كان على اتصال دائم بي.. ويكرّر كلمته «أنا بجانبك حتى لو كنت على بعد آلاف الأميال..».. تخطف أمي منه الهاتف.. لتخبرني كم تحبني وكم ترغب أن تراني قريباً. من نعم الله على الإنسان.. «العائلة».. فهي وحدها من تشعرك بالأمان والحب. كان الشوق يقودني للعودة إلى بلادي.. لكنني كنت ملتزمة بعشرات الحفلات الغنائية.. وفي يوم ميلادي.. كانت أجمل هدية تلقيتها في حياتي.. من محمود «طبعاً» تذكرتين للسفر إلى «أثينا» للقاء عائلتي.. لقد اختار وقتا مناسباً لنا جميعا أنا وهو وداليا.

وصلنا إلى هناك.. التقيت بعائلتي، أعتقد أنها من أجمل أيام حياتي وأحسنها وقعاً في ذاكرتي.. ذهبت إلى كل مكان كنت أتردّد عليه بمراهقتي، لا أخفيكم أنني كنت أفكر بالبقاء في أثينا.. لكنني فكّرت بحجم التحديات التي تنتظرني.

أخبرني أبي أنه بصدد العودة إلى «سراييفو» مجدداً بعد أن انتهت الحرب.. كذلك أمي كانت مشتاقة لوطنها وأخوتي أيضاً، أمّا أنا.. فطلبوا مني أن أكرّر زيارتي لهم لكن إلى وطننا الأصلي.. أخبرتهم أنني سأعود عندما قلت تلك الكلمة كنت أعنيها، حتماً سأعود؛ فهذا الوطن هو الذي سيحتويني في النهاية!

***

«ليلى ألبنش.. الحقيقة المرّة»

صوت الدبابات التي تسير في الشوارع المحطمة، لا تزال تشكل كابوساً مزعجا لي، أستفيق منه كل ليلة، كنت أحاول أن أنسى من أين جئت، وأحاول أن أعيش ما أنا عليه الآن، لكنّ الماضي لا بدّ أن يعود لك.. إنه يهرول نحوك. اتصال مجهول، أخبرني أنّ أمي بحالة صحية سيئة، ويجب أن أزورها، بصراحة لم أكن على اتصال بها قط منذ زواجي من عبد القادر؛

لأنني وكما ذكرت حاولت أن أنسى كل ما مضى.. لكن هي أمي! مهما كان قلبي قاسياً أو حضر النسيان بكل أشكاله، لا يمكن أن أنساها أو أغفل عنها أبد الآباد، كيف لي أن أنسى موطن الأمان الذي احتواني!

قرّرت السفر إلى هناك مدة يومين فقط، وأصرّ محمود على مرافقتي؛ فهو يخشى أن أهرب ولا أعود.

وصلنا إلى «سراييفو» اشتياقي لتلك المدينة كان كبيراً.. عندما أنظر لجوانبها وحاراتها الضيقة.. لقد كانت تتعافى من آثار الحرب.. كم اختلفت اليوم عن الأمس عندما كانت مدينة محروقة كلها جرّاء القصف اليومي والمتواصل من القوات المعادية، ترى أشباحاً يركضون دون وجه يطلقون أنيناً لا تسمعه بل تشعر به.. يبكون بصمت.. يخشون أن يرفعوا رؤوسهم خوفاً من طلقات نيران تترصد أي كائن حيّ.. كانت هذه المدينة تصبح كل يوم على استقبال قوافل الأموات الذي قتل الكثير منه بسبب هُويته، وكثيراً منهم بقي أياماً مسجياً على الرصيف دون أن ينتشل جثته أحد.

لكن اليوم هي مختلفة.. رغم الشوارع التي لا تزال تنفض الغبار عن نفسها من بقايا رماد النار، رغم الشقوق التي رسمتها الشظايا على واجهات المباني.. لكنّها تتنفّس، استغرب أن تكون تلك الذكريات كأنّها في الأمس القريب على الرغم أنّ سنواتٍ عديدةً مرّت على رحيلي من ذلك المخيّم التعيس.

أشمُّ رائحة جميلة، رغم كل هذا، إنها رائحة الاشتياق إلى الأرض.. التي وإن لم أجد بها ما يسرّني، لكنّ هنا مولدي وهنا رأيت السماء بعيني أول مرة وأبصرت الحياة وعرفت وتعلّمت وكبرت، على هذه الأرض تربّيت وربّما عليها أموت، من يدري!

سألت محموداً الذي كان حذراً وخائفاً نوعاً ما، فأنا الآن في أرضي، لا أحد يحميه سواي..

- ما صورتك عن سراييفو..؟

maktabbah.blogspot.com

ينظر إلى المباني المحاذية..

- صور جثث ومبان محطمة كنا نراها في الصحف ونبدي أسفنا لما يحدث.. وطبعاً كعادتنا لا نفعل شيئاً سوى متابعة ما يحدث..

ابتسمت وأخفيت ضحكتي.. أول مرة يقول محمود أمراً يستحق أن تثني عليه.

ثم أكمل حديثه..

- أتذكر أن هناك اسماً كان يتردد في الصحف والقنوات.. راتكو ميلاديتش !

تلاشت ابتسامتي.. تذكرت أخوتي الثلاثة.. والمذبحة التي قادها هذا الشخص الذي لم يصعد حتى الآن إلى حبل المشنقة على الرغم من جرائم الحرب التي ارتكبها بحقنا نحن أبناء البوسنة الأبرياء.

حاولت أن أخفي دمعتي، انتبه محمود لها «أعلم ذلك»، لكنه لم يعر الأمر اهتماماً وطلب مني أن نواصل المسير، تجولنا في أماكن أخرى في جوانب سراييفو.. اتجهنا من الفندق إلى المستشفى فوراً بحثت عنها بين الغرف، حتى وجدتها وقد تغير شكلها، هزل جسدها بشكل لا يصدق، لم تكن تقوى إلا على قول كلمات قليلة.

لكن حدث موقف غريب في لحظتها، قالت بكلماتها القليلة إنها لا تريد للرجل الذي بجانبي أن يبقى في هذا المكان، كانت تقصد محموداً على الرغم من أنني قلت لها إنه زوجي لكنها أصرت على خروجه.

الأم لديها مشاعر وأحاسيس لا ندركها نحن.، تعرف من يضمر لنا الخير.. ومن يضمر لنا الشر كهذا الرجل!

خرج دون أن أخبره بذلك.. كان يشعر بالاختناق من رائحة التعقيم في المستشفى، وربما شعر بأن أمي لم تود بقاءه!

جلست إلى جانبها ينظر بعضنا إلى بعض دون حديث، لكن تلك النظرات

maktabah.blogspot.com

قالت كثيراً.. فهمت عشرات الرسائل والرسائل، أهمها أنني خذلتها، تركتها وحدها في تلك الظروف الصعبة وأنها علمت أنني أخفيت عنها استشهاد أشقائي. لم أقوَ على تحمّل تلك الملامة، شعرت بغصة ورغبة كبيرة في البكاء، لكن فضّلت الخروج قبل أن أنهار أمامها، لكنها أمسكت يدي بقوة لتردّد:

- لا أريد منك شيئاً سوى أمر واحد.. هل قسمك لي كان صادقاً أم لا..!

جلست على الأرض باكية دقائق أو ربما ساعة قبل أن أقول لها

- كذبت يا أمي.. لقد فارقوا هذه الدنيا، إنهم في منزلة الشهداء الآن

لم تبكِ ولم تخفف عني أو حتى تؤنبني.. ودّعتها وهممت بالرحيل، وقبل أن أفتح الباب استعداداً للخروج.. قالت «إخوتك ماتوا شهداء، أما أنتِ فهاربة مثل أبيك وستموتين وحيدة، وقبل ذلك ستلاحقك معصية الكذب والحلف الكاذب».

أدارت وجهها إلى الجهة الأخرى، علمت أنها لن تسامحني أبداً على فعلتي.. على صمتي، على هروبي. ما أقسى أن تلاحقك لعنة اسمها «غضب الأم» إنها لعنة بل معصية ليس لها حلّ أو مخرج!

ذهبت إلى الفندق، وفي المساء خرجنا لإحدى المقاهي القريبة، شربنا القهوة، مرّ بجانبي شابّ، في البداية لم أركز بالنظر فيه، لكن بعد أن عاد مجدداً شاهدته.. «جلال الدين»!.. اقترب وألقى التحية.. كانت ملابسه رثّة، ظنّ محمود أنه متشرد، بدأ بالتحدث إلي بلهجتنا المحلية، كيف أصبحت هكذا، وأين زوجك ومن الذي بجانبك؟

أجبته بطريقة مختصرة وكأنني أخبره أن يرحل بسرعة قبل ان أدخل في دوّامة أسئلة محمود الذي كان يراقبنا دون أن يفهم ما نقول.

بدأ يشعر بالانزعاج وسألني «من هذا الشخص؟».. فأخبرته أن هذا الرجل كان يسكن بالقرب منا، ويسألني عن أحوالي، طلب مني أن أطلب

maktabah.blogspot.com

منه الرحيل فشكله وحديثه يلفت انتباه من في القهوة لنا. أخبرت جلال الدين أن يرحل لكن أخبرني بأمر..

- أبوك.. يعمل بالقرب من هنا!!

أحسست حينها بالخوف، لكنني سرعان ما تخلصت منه، فأنا الآن لست الطفلة التي كان يتفنن في ضربها، ولدي زوج «ربما لا أحبه لكن سيدافع عن دجاجته التي تبيض ذهبا».. قلت له:

- أريد رؤيته..

ابتسم وهو ينظر إلى حقيبتي التي أضعها على الطاولة وأبلغني أنه سيأتي إلى هنا صباحا لمسح أحذية من في القهوة، لذلك ما عليك سوى انتظاره صباحاً وسيأتي.

فهمت ما يرمي إليه وأعطيته مبلغاً من المال، رحل وهو يقفز فرحاً، كان جلال الدين أحد الشباب المتفوّقين في المدرسة، كان يطمح أن يكون عالماً في الفيزياء، لكنّ الحرب جعلت منه استغلالياً يتاجر بفتيات بلده الهاربات من الجحيم.. وهي اللعنة التي طاردته وجعلته مدمناً للمخدّرات.. مشرّداً بلا عنوان!

في نهار اليوم الثاني، كنت أنا ومحمود في المكان نفسه، أراقب من يدخل إلى المكان.. ساعة من الانتظار، حتى دخل أبي وهو يحمل عدته.. مطأطأ الرأس والظهر.. شعرت بالخجل من نفسي، أن يكون أبي بهذا الحال وأنا في غنى وترف، ووسط تركيزي بالنظر فيه، تفاجأت بقيام محمود بمناداته والطلب منه أن يمسح حذاءه..

اقترب ونظر لنا، لم يطل النظر إليّ، لم يعرف ابنته، فهو لا يملك قلباً حنوناً يدلّه على أبنائه، أمّا أنا، فبكيت دون توقّف، لم ينتبه لي أحدهما. واصل أبي عمله باتقان، وهو يردّد بعض الأغاني الشعبية في بلادنا، منها أغنية كنت أرددها دائماً على داليا.. انتبه لها محمود فنظر لي ليخبرني:

maktabah.blogspot.com

- هذه الأغنية ذاتها التي ترددينها على داليا.. صحيح؟

أومأت برأسها أنها هي.. فقمت بغنائها مع أبي.. رفع نظره باتجاهي.. نظرنا إلى بعض طويلاً.. ذرفت عيناه دمعة، انتهى من عمله، حمل عدّته، رفض أن يأخذ أجره من محمود وترك المكان مسرعاً.

وكأنه يهرب من كل شيء يذكّره بالماضي.. لكن أين المفر يا أبي.. فما فعلته بنا سيبقى معلقاً في ذاكرتك دائماً..

أعلم جيداً أن قلبي يحمل من القسوة الكثير، إلا أنني لا أريد أن أرحل عن هذه الدنيا وأنا بداخل قلبي غصّة تجاه أبي.. إن استطاع أحدكم أن يوصل له هذه الرسالة فليقل له: ابنتك ليلى تسامحك يا أبي.. تحبك، تحبك جداً، تمنّت لو أنها احتضنتك ذاك اليوم، هي تحبك رغم الذي كان، لا تشعر بالخجل من نفسك يا أبي.. فالحياة كانت قاسية عليك وعلينا أيضا!

***

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

منذ دخولي هذا المجال وأنا أدرك أن هناك مرارة يجب أن أتذوّقها، في مجال الغناء، أنت مادة سهلة للإشاعات والأكاذيب.. لا تستبعد أن تستفيق يوماً وتجد إشاعة عن وفاتك، أو زواجك وانفصالك، أو أن تعاني من مرض عضال، أشياء كثيرة تترك أثرها أكثر بمن حولك، فهم المحبين والمقربين، أمّا أنا، فأستغرب ممن يحاول أن يرفع إيراداته على حساب مصير الناس وأحاسيسهم. في صباح يوم ممطر.. استيقظت ولم أجد محموداً بجانبي، وجدته جالساً أمام التلفاز، نظرت إليه إذ هو غارق في أفكاره، لا أعلم لماذا تذكّرت عبد القادر، شعرت بالخوف من أن تكون هناك طامة جديدة قد تفقدني زوجي.

حاولت معرفة ما به، وبعد عدّة محاولات أخرج صحيفة من الطاولة التي أمامه، ليشير إلى خبر.

maktabah.blogspot.com

ليلى ومحمود.. إلى طريق مسدود.

لقد تفنن الكاتب بتأليف قصة أن محموداً متضايق من لقاءاتي الكثيرة مؤخراً مع المطرب الشهير جمال ياقوت، ويفكر جدياً بالانفصال، وأنه قد غادر فعلا المنزل، وبصدد البدء بإجراءات الطلاق.

نظرت إليه..

- وماذا يضايقك.. هذا ما حدث فعلاً ومحمود غادر المنزل

«قلتها بطريقة هزلية، لكنه رمقني بنظرة جادة وبقي عابساً، قبل أن ينطق بما يحتويه..»

- لا يهم محمود.. بل يهم أنت.. ما يحدث تشويه لسمعتك.. محاولة لنشر فكرة أن ليلى مجرد إنسانة رخيصة.. تبحث عن المجد والشهرة بأي طريقة، لكنك لست كذلك أنتِ أنقى من ذلك.. أنتِ إنسانة صادقة مع نفسك والآخرين.. لماذا هذا التشويه؟!

كانت كلماته جميلة بحق.. من الجميل إذاً أن يكون لك زوج يعرفك ويفهمك ويدافع عنك حتى لو كان ذلك على حساب نفسه..

في اليوم التالي ذهب محمود إلى الصحيفة مطالباً إياها بالاعتذار أو سيلجأ إلى القضاء.. وبلا شك وافق من كتب الخبر على الاعتذار لكن بالوقت ذاته طلب أن يجلس مع محمود على انفراد.. لقد أخبره أن الخبر مدفوع الثمن من المطربة الشابة فاتن.. والتي تعد المنافسة الحقيقية لليلى.. لم يصدق محمود ما قاله.. ظن أنه يحاول إشعال فتيل أزمة بيني وبينها.. لذلك لم يخبرني..

بعد أيام انهمرت الأخبار الكاذبة في كل الصحف عني وعن جمال ياقوت.. بل إن إحدى الصحف ذهبت بعيداً إلى حد زواجنا.

بينما محمود يفند الإشاعة هنا وهناك.. يخبره صحافيان آخران أن فاتن من سربت تلك المعلومات، لكنه يحتفظ برباطة جأشه ويرفض الرد أو

mktabbah.blogspot.com

التصريح أو حتى أن يسمح لي بالحديث.. قال لي ذات يوم

- نفي الإشاعة.. تأكيد لها.. احذري من الرد على التفاهات.. حتى لا تصبح أموراً مهمة يتداولها الآخرون.

بعد أيام وردني اتصال من جمال، كان الاتصال الأول الذي يجمعنا، إنسان مهذب لم يتطرق لما تتداوله الصحف لكنه أخبرني أنه مستاء ممّا يكتب وأنه اتخذ الإجراءات القانونية وأنه يتمنى مني أن أفعل هذا الأمر.. قبل أن ينهي الاتصال طلب أن يتحدث إلى محمود.

وبعد محادثة أخرى استمرت نصف الساعة أخبرني زوجي أن جمالاً عرض عليه إدارة أعماله، لكنه رفض!

- لماذا ترفض، حاول أن تتوسع في أعمالك، هذا الأمر سيضاعف نجاحك أعلم أنك شخص طموح تبحث دائما عمّا يدفعنا للأمام

ضحك..

- جميلتي.. لو كان الأمر يتعلق بشخص آخر وليس بهذا الشخص، لوافقت، لكن بعد جملة الإشاعات التي تربط بينك وبينه، لن أوافق حتى لا يقولوا إنها «مساومة» أو أمور من هذا القبيل، أخبرتك وسأعيد تلك الجملة..«سمعتك تأتي أولاً.. قبل كل شيء.. حتى قبل محمود نفسه»!

أعجز عن وصف هذا الإنسان.. تأكدوا دائماً.. أن المواقف وحدها من تبيّن معدن الرجل.. الأقوال سهلة إن لم تترجم لأفعال.

* * *

«ليلى أليتش.. الحقيقة المرّة»

كإسرائيل.. كان محمود.. طموحه التوسع وامتلاك كل شيء دون وجه حقّ.. لم يكتف بالأموال التي يجنيها مني، بل بدأ نظراته تتجه نحو المطرب الشهير جمال ياقوت، كان يردّد دائما إن نجح في إدارة أعمال جمال، فهو لن يكون بحاجة أحد، وسيصل لأقصى طموحاته، لم أكن

أكترث لما يقول، فهو كثير الكلام قليل الأفعال ككل الرجال الذين مرّوا في حياتي.

كنت جالسة مع داليا في غرفة المعيشة، ألعب معها، أشعر بالأمان من ابتسامتها التي كانت سبباً في كفاحي بهذه الحياة الصعبة.

حتى وصلت مدبرة المنزل تخبرني أن هناك باقة ورد ورسالة بالإضافة إلى علبة قد وصلتني للتو.

توقعت أنها «وكالعادة» من المعجبين، لكن عندما قرأت الرسالة شعرت بالصدمة، كانت من جمال:

لقد وصلتني رسالتك.. أنا أيضا معجب بك، أتمنى أن نلتقي قريباً، أشعر بالأسف حيال إخبار انفصالك عن محمود!

فتحت العلبة، كان خاتماً ذهبيا، يخطف الابصار، لكن انا كنت مشوشة وضائعة.. «ما هي الرسالة التي وصلته ومن من ؟!»

لم يطل سؤالي كثيراً، عندما حضر محمود وأخبرته بما حدث دخل في ضحكة هستيرية..

- لقد وقع في الفخ!

فهمت أن هذا الرجل يحاول أن يكوّن علاقة بيني وبين جمال؛ حتى يستطيع أن يبتزه بالرسائل والهدايا، وأن يحاول أن يخلق من الأمر مادة صحافية دسمة!

غضبت وطلبت منه أن يكف عن تلك التصرّفات.. نظر إلى داليا ثم نظر إليّ..

- أنا مستعد أن أتوقّف، لكن وبكل بساطة سأطلّقك واحتفظ بتلك الطفلة.. واصلي حياتك وحيدة مثلما كنت.. ولينتهِ كل شيء

كثيرة هي تهديداتُ محمود لي، لكنّ التهديد بـ«داليا».. هو ما جعلني أكون أضعف مخلوقة في هذا الكون، لا تُهدد أمٌ بأطفالها، فهم جزءٌ منها لا

maktabah.blogspot.com

يمكن أن ينفصل أبداً.

ترك المكان بينما اتّجهت نحو داليا، احتضنتني وكأنها تشعر أن هناك أموراً سيئة تحدث لي.. رددت عليها

- لن تبقي وحيدة أبداً، أعدك بذلك

في أثناء ذلك العناق، حضرت صورة أمي أمامي، تضحك وتشير بإصبعها نحوي، وكأنها تقول..

- هل شعرتي بذلك الأمر.. ألا تبقي وحيدة، أو ألا تتركي ابنتك كذلك، هذا هو شعوري الذي يقتلني، أن أبقى وحيدة، أو أن أراك هكذا، أنت مثيرة للشفقة.

بدأت بالبكاء بشكل متواصل، أردد «سامحيني يا أمي».. لكن كيف لهذا الصوت أو النداء أن يتعدى تلك المسافة وأن يصل إليها في فراش المرض، لا أدري!

توالت رسائل جمال بعد ذلك، بينما محمود هو من يقوم بالردّ عليها، كان يرسل عشرات الهدايا، لم أفتح أياً منها بل من كان يقوم بذلك هو محمود الذي يترك تعليقاته الساخرة على الهدايا.. ذات يوم قال لي:

- هل تعلمين أن جمالاً يعرض عليك الزواج في حال انفصالك مني، أنا مستعدٌ لهذا الأمر، لكن بشرط أن أدير أعمالكما معاً بعقد يمتدّ ثلاثين عاماً.

لم أجبه، ولم أعر لما يقوله اهتماماً، فلا أظن أن جمالاً بهذه السذاجة أن يقبل بمثل هذا العرض.

بعد شهر، كنت أحيي حفلاً نسائياً، جلست في غرفتي ألتقط أنفاسي، فطلبات الموجودين كانت كثيرة، ولم أتوقف عن الغناء، فجأة ودون سابق إنذار وجدت يدين تغمضان عيني، إنهما لرجل!

اعتقدت أنه محمود لكن هو لا يقوم بمثل تلك الأمور، أبعدت وجهي لأنظر من..

maktabah.blogspot.com

- جمال!

قلتها بدهشة، لم أكن أعلم أنه المطرب الذي يليني في الوصلة الغنائية، سألني عن أخباري وعن الرسائل..

لم أستطع الإجابة حاولت تغيير الموضوع حتى لا أتعرض لأسئلة قد لا أعرف الإجابة عنها..

بدأ مستغرباً من حالة التوتر الشديد وتعمدي تغيير أي موضوع بشأني وشأنه..

- ماذا بك؟.. لقد وصلتني رسالتك أمس أنك تتوقين لقائي، أنا أرى أنثى مرتبكة ترتجف، أين الفتاة القوية التي تواجه كل التحديات..

حاولت أن أتفادى المزيد من الأسئلة

- اعذرني جمال، أنا أشعر بضغوطات كثيرة، لنجد وقتاً آخر للحديث..

تركت المكان وقبل أن أخرج من الباب قال

- يقودني شعورٌ غريبٌ أنّ من تكتب لي الرسائل ليست أنت.

رمقته بنظرة حزينة.. وتركت المكان.

في المنزل كان محمودٌ يستمع لأغاني مطربة جديدة اسمها فاتن، وقفت أمامه ونهرته

- لقد قابلت جمالاً حالاً، هل تعرف مدى الإحراج الذي انتابني.

شعر بالصدمة..

- هل أخبرتيه شيئاً.. أقسم إنّك أخبرتيه..

قاطعته

- لم أخبره شيئاً، لكن أنا مستعدة لاخباره إن لم تنهِ الموضوع فوراً.

maktabbah.blogspot.com

بدأ بالاستدارة حولي..

- قريباً جداً سينتهي هذا الموضوع

بعد أيام قابل محمود جمالاً وجهاً لوجه. وبكلّ وقاحة أخبره أنه علم بالرسائل الغرامية، هدده أنّ كل تلك الرسائل ستكون بحوزة الصحافة خلال أيام إن لم يوقّع معه عقد إدارة أعماله.

رفض جمال «المصدوم» عرض محمود لكنه عرض عليه دفع مبلغ كبير مقابل شراء تلك الرسائل.

استمرت مفاوضاتهما شهراً، حتى اتفقا أن يحصل محمود على جميع إيرادات حفلات جمال عاماً كاملاً. المؤلم في الأمر أن زوجي لم يخبره أن تلك الرسائل الوهمية، بل أوضح أنه عثر عليها مصادفة وأنني محطمة بسبب ما حدث. هل هناك رجلٌ أشدُ لوماً منك يا محمود!

استطعت أن أحتفظ ببعض الرسائل التي وصلتني، لا أعلم لماذا لكن شعرت أنني سأكون بحاجتهم يوما ما، ولم يخب ظنّي!

رغم أنّ نجاحي في مجال الغناء توسّع أكثر، وأصبحت إحدى نجمات الخليج والعرب، وازداد دخلُ محمود لكنّ أطماعه لم تتوقّف، لقد آمنت بأمر.. أنّ هناك أشخاصاً حتى لو امتلكوا أموالاً لا تحرقها النار، فطمعهم يتضاعف ولا يمكن أن يُوقفهم سوى.. الموت!

***

«ليلى آلينتش.. محبوبة الجميع»

تعلّم من دروس الماضي، السلبية والإيجابية، وتأكد أنّ قيامك بدعم ومساندة غيرك سيعود عليك أنت بالخير والنجاح يوماً ما.

هذا ما كنتُ أفكّر به وأنا آخذ بيد المطربة الشابة فاتن، والتي وعلى الرغم أنها المتهمة الأولى في تسريب الإشاعات عنّي وعن محمود، لكنني

رميث كلّ ذلك خلف ظهري وقررت أن آخذ بيدها.

أتذكر عندما زارتني في المنزل، كانت خجولة جداً، لا تستطيع أن تتحدث معي وكأنّ هناك «ذئباً» اقترفته وتحاول إخفاءه بالسكوت، لم أمنحها فرصة للاعتراف، فأنا أبحث عن بداية جديدة معها، فهي ذات صوت جميل، أستمتع بالاستماع إلى غناءها، تمتلك إحساساً يبكيني يذكّرني بطفولتي بأمور أفتقدها كثيراً.

تعلّقت بي فاتن أيضاً، وبدأت أحاول أن أرشحها لأيّ حفلة أقوم بإحيائها، لم يَردْ لي أحد طلبٌ، فجميعهم يعلم أنني لا أجامل أو أحاول الاستفادة من وراء ما أقوم به.

استطاعت فاتن أن تثبت على قدميها وانطلقت بقوة، لقد شكرني الكثير من المنتجين على ما قمت به وأخبروني أنه من النادر الآن أن تقوم مطربة بدعم زميلتها في ظلّ التنافس ما بينهما، لكنّي لا أفكر مثلهم، هي تستحقّ النجاح لذلك يجب أن تقطفَ ثمارَه.

لماذا يحاول بعضهم أن يعيق تقدّمنا إذا أردنا الوصول إلى مبتغانا، على الرغم أن وصولنا هذا لن ينقصه شيء، لكن هي الطبيعة البشرية، الغيرة تحضر بأسباب ودونها أيضاً.

أعلم أن محموداً لم يكن على رضا بما أقوم به مع فاتن، وأول مره رأيتها بحالة غضب عندما عرضت عليه أن يدير أعمالها، قال بصوت عالٍ:

- لا يمكن أن أمدّ يدي بيدها، لقد أساءت لنا كثيراً، حاولت الصعود على أكتافنا، وعندما فشلت، اقتربت منك مدّعية أنها مسكينة وأنها تحاول أن تبحث عمّن يرشدها إلى الطريق الصحيحة

قاطعته وطلبت منه أن يهدأ وحاولت إقناعه أنّها تغيّرت وأن علينا أن نمنحها فرصة، فإذا كانت على قدر طموحاتنا فنحن من سنظهر بصورة جيدة أمام الآخرين، وإذا حدث العكس فقد قمنا أيضاً بما يمليه علينا ضميرنا.

maktabah.blogspot.com

حاولت مراراً إقناع محمود حتى وافق أخيراً واستلم إدارة أعمال فاتن، لقد قام زوجي العزيز بالمجهود ذاته الذي قدمه لي في بداياتي، بزغ نجم فاتن شيئاً فشيئاً واستطاعت أن تأخذ مكانها المناسب في هذا الوسط الفني الذي يعجّ بالأصوات الجميلة.. والرديئة أيضاً، كنت أتابع كلّ ما يقوم به محمود، هذا الرجل الذي وهبه الله لي، يجب أن أكرّر شكري وتقديري وعرفاني له، لا أستطيع نسيان ما قدمه لي، والآن أنا فخورة بما يقوم به مع صديقتي الجديدة التي وعلى الرغم من انشغالاتها وارتباطاتها كانت تردّد زياراتها لي كلّ يوم لتأخذ بنصيحتي، لقد أحببتها كثيراً، من الجيد أن تجد تصرّفك الجيد ينعكس أثره على الآخرين.. أرجو كلّ الخير والنجاح لك يا فاتن.

***

«ليلى أليتش.. الحقيقة المُرّة»

انتهينا من جمال.. وحضرت فاتن !

كان صباحا عاصفا كئيباً اضطررت للجلوس بالمنزل، وإلغاء كلّ التزاماتي بينما كان محمود يجري اتصالات متواصلة، يبدو أن هناك أمراً جديداً يشغله.. أردّد بداخلي ألا تكون في تلك المسألة لأنني ضقت ذرعاً من تصرّفاته وأفعاله المخزية.

بعد أيام، عدت الى المنزل، فتحت الباب لأجد المطربة الشابة فاتن تجلس مع محمود، أمامهم مجموعة من الأوراق!

- ماذا يحدث هنا!

قلتها بصوت المستعجب، بينما حملت فاتن بعضاً من تلك الأوراق وحاولت الخروج من الباب لكنني منعتها، وأعدت السؤال

- ماذا يحدث هنا.. أجيبي!

رسمت ابتسامة قبيحة على وجهها..

maktabbah.blogspot.com

- الأستاذ المحترم محمود سيخبرك بكل شيء

نظرت إليه بينما هي سارعت بالخروج، لم يبالِ هو لما حدث، جمع الأوراق الموجودة على الطاولة ووضعهم داخل ملفّ قبل أن ينظر إليّ..

- الآن أصبح لديّ نجمتان وليس نجمة واحدة!

لقد اتفق محمود مع فاتن تلك المطربة أو لنقل المؤدية فهي لا تمتلك خامة صوت جيدة بل على العكس تماما اعتمدت بشهرتها على مشاكلها والتي لا يسعني قولها هنا فالصحف كتبت عنها وبينت أن دخولها هذا المجال جاء بمساعدة صديق!

وهذا الأمر لا يهمّ شخصاً مثل محمود الذي يستطيع، فهو شخص ماكر يستطيع توظيف كلّ شخص لأغراضه الشخصية ويعرف كيف يستغلّه جيداً وأنا مثال حيّ.

بدأ محمود عمله مع فاتن بنشاط كبير واستطاع وخلال فترة وجيزة مستغلاً علاقته مع المنتجين ومتعهّدي المناسبات والتي بناها أصلاً من خلالي أن يؤمن لفاتن إقامة عدد لا يستهان به من الحفلات في جميع أرجاء الوطن العربي وبعض العواصم الأوربية المعروفة، من الغريب أنني لم اشعر بالغيرة، ربما لأننا أعلم من هو محمود، فهو شخص لا يعرف شيئاً عن الحبّ والاهتمام والتضحية، تقوده مصالحه والتي يضعها قبل أيّ شخص في هذا الكون.

كذلك كنت على علم أن نصيحتي لفاتن لن تجدي نفعاً، فمجرّد أن أتذكر نظراتها لي وهي خارجة من المنزل تبيّن ألا وفاق سيحدث أبد الدهر.

لأعترف بأمر لا يجب أن أهمله، اهتمام محمود بـ «فاتن» كان يصبّ في مصلحتي، فهو أهملني وهذا ما جعلني أقضي وقتاً أطول مع داليا، شعرت أن تلك الفتاة هي جنّتي في الأرض، السعادة الحقيقية، الضحكة التي تصدر من أعماق قلبي برفقتها، لقد غيّرت طباعي، أصبحت أهوى الجلوس معها على الخروج لأيّ مناسبة أو المشاركة في فعاليات قد تدرّ عليّ أموالاً

كثيرة.

داليا هي وطني الجديد.. الوطن الذي يجب الا افارقه أبداً.

ربما من الأمور التي يجب أن أتذكرها في تلك الفترة، عندما كنت على استعداد لإحياء حفلة غنائية، جالسة في الغرفة المخصصة لي أستعد ذهنياً ونفسياً، بالقرب مني خبيرة المكياج التي تضع لمساتها الأخيرة، دخل أحد الحرّاس الشخصيين يخبرني أن هناك فتاة تريد أن تقابلني ولو لدقيقة، أعتقد أنها إحدى المعجبات المهووسات بي، أخبرته أنني لا أريد مقابلة أحد لكنه وقبل أن يدير ظهره، قال:

- قالت أخبرها أنني لولوة.. التي لا تعرف أين رأتها سابقاً!

اتّسعت عيناي، ارتسمت على شفتي ابتسامة كبيرة، تلك الفتاة الطيبة موجودة هنا!..

لم اخبره أن يناديها، بل قمت بنفسي وخرجت، وجدت العديد من الأشخاص الذين استداروا حولي بحثاً عن توقيع أو صورة، لكنني كنت أنظر في كل مكان بحثاً عن لولوة، حتى وقعت عيناي عليها، اخترقت هذا الحشد، وصلت إليها، عانقتها بشدة، قبل أن أطلب منها مرافقتي إلى الغرفة.

- ياه.. لولوة تغيرتي كثيراً لقد أصبحت ناضجة وجميلة..؟

تضحك..

- وهل كنت في السابق دميمة مثلاً؟

نضحك ثم أعود لعناقها، فالأشخاص الطيبين أصبحوا عملة نادرة، تحاول من خلال هذا العناق أن تتجرع تلك الطيبة..

أخبرتني لولوة أنها تخرجت في كلية طب الأسنان وستصبح طبيبة قريباً بعد أن تنتهي من إجراءات فتح عيادتها وطلبت مني أن أفتتحها، وافقت دون تردد بل أخبرتها أنني مستعدة لتمويلها بالمبالغ التي تحتاجها لكنها

رفضت وقالت إنّ الأمور المادية لا تشكّل عائقاً، وأنا حضرت اليوم إلى الحفلة كمعجبة بصوتي وأيضاً للصداقة التي جمعتنا.

كان الوقت ضيّقاً لمواصلة الحديث، فالقائمون على الحفل يطلبون مني أن أكون على استعداد، كان سؤالي الأخير لها عن عبد القادر، قالت إنه لم يتغيّر، لقد تزوّج فتاة من كومسوفو، تواجه معاناتك السابقة نفسها لكنّها صابرة ومطيعة، فهي لا تمتلك صوتك «نضحك معاً» ثم أكملت

- كلّما شاهدك أبي أو أمي أو زوجة أبي على شاشة التلفاز يقومون فوراً بإغلاقه أو تغيير المحطة، لقد أصبحت ذكرى مزعجة تطاردهم دائماً.

لم أتوقّع في يوم الأيام أن أكون «ذكرى سيئة» لإنسان، لكن أنا سعيدة أن أكون هكذا لمثل هؤلاء الذين لم يعاملوني يوما بعطف أو احترام.

حان وقت الدخول إلى المسرح، ودعت لولوة على أمل اللقاء بها مجدداً في افتتاح العيادة، لكن هذا لم يحدث، فهناك أمرٌ ينتظرني، سيقلب حياتي رأساً على عقب!

***

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

الحياة.. وإن كنا نعتقد أنها تغضّ الطرف عنا، فهي لم تنسنا، كنت أستعدّ لإحياء حفلة غنائية في الكويت، أجلس في غرفتي وحيدة، محمود لم يرافقني؛ لأنه كان منشغل في تجهيز حفل فاتن ولقلة خبرتها أخبرني أنه يجب أن يكون بجانبها في هذا التوقيت الحرج.

كنت على تواصل معه عبر الهاتف، يخبرني بكل شيء يحدث، لكنه سألني سؤالاً

- ليلى.. صوتك ليس طبيعياً هل هناك خطب ما؟

أخبرته أن كل الأمور على ما يرام، لم أشعر حقاً بما يقوله، لكن مع مرور الوقت شعرت بآلام في الصدر ظننت أنه بسبب تغير الجو ولم أكترث

maktabah.blogspot.com

للأمر.

بعد ساعة حضرت خبيرة المكياج، وقبل أن تضع لمساتها على وجهي قالت..

لونك يميل إلى الرمادي، وأراك تتعرقين بشدة!

اقتربت مساعدة الخبيرة مني تتفحص عيني..

- ما بال تلك الهالات السوداء تحيط بعينيك؟

ابتسمت ولم أعر ما يقولونه اهتماماً.. وبعد إلحاح شديد منهما.. أخبرتهما أنني لم أنم بشكل جيد في الأيام الأخيرة الماضية بسبب السفر والتنقل من مكان إلى آخر، تغاضيت كذلك عن آلام المعدة وما أصاب كتفي وما اعتراني من ألم في الأيام الأخيرة كذلك.

في أثناء الحفلة، كان شعور التعب شيئاً فشيئاً، لم أقم بتأدية كل الأغنيات المطلوبة بسبب ضيق التنفس الذي بدأ يلازمني كذلك، ذهبت فوراً خلف الكواليس، جلست على أحد الكراسي.. أغمضت عيني..

هنا.. لم أفتحها إلا وأنا على سرير المستشفى محاطة بكثير من الأسلاك وصوت مؤشر القلب..

أرى محموداً وعيناه الدامعتان براقباني وبجانبه فاتن جالسة على الكرسي الذي يجاور سريري.. مددت يدي إليه، سارع بالتقاطها.

- ماذا حدث..؟

يردَ محمود بصوت خفيض..

- لا تتحدثي..

وجهت نظري صوب فاتن.. سألتها ولم تُجب.. دقيقة.. حتى أغمضت عيني مجدداً..

أفقت في مكان آخر، لكن هذه المرة غرفة مشمسة، كان محمود جالسا

maktabbah.blogspot.com

يقرأ إحدى الصحف، دعوته؛ نظر ورمى الصحيفة وانطلق نحوي وضع يده على وجهي

- حبيبتي.. هل كل شيء ما يرام..؟

حرّكت رأسي بصعوبة.. سألته عما حدث لي فأخبرني أنني تعرّضت لنوبة قلبية حادّة، أجبرتهم على إجراء عملية جراحية.

شعرت بخوف وقلق شديدَين، وبدأ شبح الموت يراودني أول مرة، بدأت أوجّه الكثير من الأسئلة له، وهو يجاوب ويحاول أن يخفّف من التوتّر الذي لازمني ويطلب منّي الهدوء؛ لأن تلك الأمور قد تضرّ صحتي.

يستطيع محمود إيقاف أسئلتي، لكن لن يوقف تفكيري، الأمر أشبه أن تكون على مقربة من هاوية.. تلك الهاوية هي الموت، سينتهي كل شيء، هذا السؤال الذي بدأ يتردّد في ذهني في هذا المكان الكئيب، والذي يغطّي بياضُه حزنَه، والأرواح التي غادرت منه وهي تعاني أشد الألم!

بعد أيام غادرت المستشفى، طلب منّي الدكتور المعالج أن أخلد للراحة دون أي مجهود، عدت إلى منزلي أحاطني محمود بالرعاية الكاملة، لم يترك المنزل منذ ما حدث لي بينما لم تفارق داليا الطفلة حضني، أعتقد أنني يجب أن أبتسم رغم كلّ ما أعانيه، فلديّ عائلة تحتويني وتهتمّ بي، تلك النعمة التي لا يشعر بها كثيرون بالمقابل هناك كثيرون يتمنّون أن يعيشوا تلك الأجواء ولو «دقيقة»!

طلبت من محمود أن يهتمّ بعمله، فوجوده لن يفيد بشيء فهناك ممرضة وكذلك سائق، يتابعان حالتي الصحية، بينما هو مزدحم بالأعمال ومطالب بالسفر كلّ أسبوع، كل ذلك تأجّل بسببي، أشعر بالندم، فمن الأمور التي تسعدني أن أرى هذا الرجل في المكان الذي يستحقّه، والحمد لله لقد حقّق نجاحاتٍ كبيرةً أتمنّى أن يستمر بها.

على مضض وافق محمود على أن يغادر لكنه طلب مني أن أتحمل اتصالاته..

maktabah.blogspot.com

- كلّ ساعة اتصالان، يجب عليك أن تقومي بالردّ فوراً أو ستجدينني بعد ساعة أمامك!

ضحكت ووعدته أنني سأقوم بالردّ عليه فوراً، أو ربما أنا من يتصل عليه لأسأله عن سير العمل.

ذهب وهو يرسم ابتسامة «كاذبة» فأنا أعلم أن قلقه عليّ يسيطر على كلّ جزء فيه، قمتُ من فراشي وودّعته من على الباب، أرسلت له دعواتي أن يكتب الله له في كلّ خطوة خير ونجاح.

عدت إلى سريري، ولأنني لا أحبّ الحزن، مثّلت السعادة، قمتُ بالرقص مع داليا، لكن شعرت أن قدماي لا تحملاني، توقّفت، جلست على الأرض، اقتربت منّي داليا تنظر إليّ، أجزم أنها شعرت بي، جلست بالقرب منّي تنظر إليّ دون أن تبتّ بكلمة، وأنا.. أبتسم وأمنع دموعي أن تسيل أمامها، لقد كانت أسوأ لحظات حياتي أن يمنعك المرض من أن تتوقّف عن رسم الفرح على محيا طفلك.

***

«ليلى أليتش.. الحقيقة المرة»

لا تتوقّع أن الموت بعيد عنك، ربما كان على بعد أمتار قليلة منك، لكنه ابتعد لأنّ هذا ليس بيومك، هذا ما حدث لي، في أثناء استعدادي لأحياء إحدى الحفلات الغنائية، قبل أن أصل كنت على اتصال «مشحون» مع محمود، والذي قام بسحب أغنيتين كانتا من نصيبي وأهداهم إلى فاتن دون إذني، لقد تبادلنا السباب، وختم حديثه بالقول

- لا تتوقّعي أنني تخلّصت من الأوراق التي امتلكها ضدّك بعد ولادتك داليا، أنا مستعدّ لتحطيمك في أيّ لحظة، فاحذري منّي!

أغلق الهاتف..

دخلت قاعة الحفل، لا أريد الحديث مع أحد، توجهت إلى غرفة التجهيز،

maktabbah.blogspot.com

أغلقت الباب من خلفي ودخلت في نوبة بكاء مريرة، تذكرت كل شيء، وأول من مرّ على ذاكرتي هي أمي، التي تركتها في سرير المرض وحيدة، تذكرت قراراتي الغبية التي قادتني إلى هنا، أول مره أشعر بالندم على الزواج من عبد القادر، أخاطب نفسي، لماذا لم أصبر قليلا، لقد تعافى موطني والحياة عادت إلى طبيعتها، لماذا لم أصبر.

أرسل اللعنات إلى روحي، أتمنى أن أموت بسرعة لأنتهي من هذا العذاب الذي يسمى «محموداً»، أحييت الحفلة «والتي أعتبرها أسوء حفلة لي على الإطلاق» لقد كنت أشعر بالحزن والإرهاق والتعب، أخطأت كثيراً في كلمات الأغاني، وقبل ختام الحفلة بنصف الساعة شعرت باختناق شديد، خرجت فوراً، جلستُ على الكرسي، شعرت أن هناك شيئا يلامس كتفي، يوشوش بأذني..

«أنا الموت، أنا قريب منك جداً.. أمنيتك ستتحقق»

حاولت أن ألتفت وأنظر إليه، فوجدت سواداً عظيماً، صرخت بأعلى صوتي.. كررت الصراخ.. حتى فقدت الوعي.

كل ما في الأمر أنني وجدت نفسي في السرير الأبيض محاطة بالأسلاك، أحاول الوقوف ولا أستطيع، لقد كان متعهد الحفلات يراقبني من خلف نافذة زجاجية، يبدو عليه التوتر، نظرت إلى الجهة الأخرى كان هناك مجموعة من الممرضين يتحدث بعضهم مع بعض، أحسست بالتعب ينتابني مجدداً أغمضت عيني.

أفقت مجدداً، لكن هذه المرة في غرفة مليئة بالأطباء يتحدثون فوق رأسي عن حالتي، ينتبه أحدهم لي.

- ماذا حدث ؟

يردّ عليّ دكتور كبير في السنّ من بينهم..

- نوبة قلبية.. سلامتك

maktabbah.blogspot.com

أحاول أن أرفع جسدي لكن أشعر بثقل ينتاب رأسي وكذلك حالة من الخدر تنتاب جسدي، يخبرني الدكتور أن علي الاسترخاء وعدم بذل أي مجهود.

يخرج الجميع ويبقى هذا الدكتور الذي عرفت من الآخرين أن اسمه عبد الحميد، كان إنسانا بشوشا يحاول أن يتحاشى الأحاديث الجادة بإلقاء النكات.. تفاعلت معه قليلاً لكن فكّرت في داليا، هي في المنزل مع المربّية، لم أعتد مؤخراً على تركها وحيدة، طلبت من الدكتور أن يتصل على زوجي، قال إنهم على اتصال معه سيصل غداً من مصر ليتابع حالتي الصحية.

يا لبعض البشر حتى في أحلك المواقف لا يظهر لك مشاعر تعبرأنه يمتلك ولو قليلا من الإنسانية.

أعتقد أنّ تلك اللحظة هي المصيرية في حياتي، لقد قرّرت المُضيّ قُدُماً والعودة إلى البوسنة وترك كلّ شيء خلفي لكنّ الدكتور فاجأني بعد أحاديث طويلة أنني مضطرة أن أكون تحت المتابعة؛ لأنّ هناك مؤشراتٍ تنذر أنّ النوبة قد تتكرّر!

سألته إن كان بإمكاني الغناء مجدداً.. «ابتسم» ورد بطريقة ودودة

- أعلم أن الناس تنتظرك بشغف، لديك الكثير من المحبين، فور انتشار خبر ما حدث لك، كان هناك العشرات في الخارج ينتظرون معرفة المستجدّات، لقد قمنا بطمأنتهم أنك بخير، لكنّ أمر الغناء يحتاج منك مزيداً من الوقت، أنا أدرك جيداً أنّ الغناء وإحياء الحفلات يتطلّب جهداً مضاعفاً وأنت في حاجة إلى راحة تامة، بعيداً حتّى عن الضغوط النفسية، وأفضّل أن تختاري السفر لتبتعدي عن كلّ تلك الضوضاء وتستعيدي طاقتك مجدّداً.

سألته عن نسبة تكرار ما حدث لي، فرفض أن يضع نسبة. هنا شعرت أن الأمر ليس طبيعيا وأنني بحاجة فعلا إلى الراحة وإلا.. فنوبة جديدة قد

maktabah.blogspot.com

تقضي عليّ!

في اليوم ذاته حضرت المربية مع داليا، احتضنتها وبكيت كثيراً، لقد مرّ شريط حياتي أمامي، خشيت أن تبقى فتاتي وحيدة، لا أحد لها هنا، فالزوج لا أستطيع أن أعتمد عليه في تربيتها، والمربية سيأتي يوم وتقرّر العودة إلى بلادها، فمن سيبقى لك يا داليا؟

قبل قدوم محمود، كنت أفكر طوال الليل بما سأفعله، وكان قراري الحاسم

- سأعود إلى سراييفو.

وقرار العودة هنا يعني أنني لن أعود إلى هذا المكان من جديد وسأهرب من محمود واستغلاله وجشعه، سأعتني بـ «داليا» وسأمنحها كلّ وقتي، سأعود إلى أمي سأرمي بنفسي عليها، أعرف جيداً مهما ارتكبنا أخطاء بحق الأمهات، فسيبقى هناك متسعٌ من السماح والمعذرة.

عاد محمود، متبلد المشاعر، ينظر لي وكأنني لا أعاني شيئاً..

- ها.. أراك بصحة جيدة، توقعت عكس ذلك..

ابتسمت في وجهه

- لا، أنا بخير.. قوية وصلبة وأرفض السقوط

يسحب الكرسي القريب منه..

- بل أنتِ كما يُردّد المثل.. قطة بسبعة أرواح.. نجوتِ من مجازر البوسنة وأنت هنا اليوم في تمام صحتك وعافيتك وكأنّ ما تعرّضتِ له قرصة نملة وليس نوبة قلبية.

أتكلف الابتسام:

- هذا لا يهم الآن، أنا بحاجة إلى راحة مدة شهر، أي مجهود آخر ربما تكون النتائج وخيمة، وأنا أدرك جيداً أنك لا تريد موت «دجاجتك

مكتبة الحرية
maktabah.blogspot.com

الذهبية»!

يخرج هاتفه ليقرأ رسالة وصلته دون أن يعير انتباهاً لما قلته.. كررت كلامي فقال..

- لديك ثلاثة أسابيع، الأعياد اقتربت وهذا هو موسم «الحصاد»

أخبرته أنني بحاجة إلى السفر أيضا للابتعاد عن ضغوطات الإعلاميين وأسئلتهم ومحاولتهم «خطف» صورة لي بعد ما حدث..

رفض في البداية لكنني استطعت أن أقنعه بحجة أنني يجب عليّ فعل ذلك لكي لا أترك الساحة لغيري.. قال هنا وبطريقته المستفزة المعتادة..

- لا تريدين ترك الساحة لفاتن، لا أريد أن أخيب ظنك، لكنها حصلت اليوم على عقد رائع لتقديم برنامج غنائي على واحدة من أشهر القنوات التلفزيونية.

ضحكت بصوتٍ عالٍ..

أستغرب من هذا الأمر..

- ما المضحك؟!

قمتُ بتعديل جلستي قليلاً والتفت إليه..

- هل تعرف الفنانة السناء، لقد قررت الانسحاب من برنامجها وكلمني المنتج وأخبرني أنني المرشحة الأولى.

لم يصدم ويحزن طبعاً، فهو مستفيد أيضاً، ابتسم وردد

- هل عليك الخير يا محمود.. هل طلب مني قبل أن أرحل بأن أحاول العودة في فترة أقصاها 20 يوماً.

طلبت منه أن يرافقنا لكنه رفض وقال إن جدوله مزدحم.. كنت أعلم أنه سيرفض؛ لأن فاتن هي نجمته واهتمامه الأول الآن، ولا يستطيع أن يتركها

مهما كلفه الأمر.

بعد أيام خرجت من المستشفى وذهبت إلى المنزل قمت بترتيب أغراضي وأغراض داليا، استعداداً للسفر، قبل أن أخرج من باب المنزل التفت ملقيةً نظرة أخيرة على منزلي، كانت هي نظرة الوداع.

- إلى اللقاء يا منزلي.. إلى اللقاء لكل لحظة جميلة قضيتها مع داليا هنا.

أتذكر أنني ارتديت وقتئذٍ النقاب منعاً لأسئلة الفضوليين ومضايقاتهم، اتجهت إلى المطار مباشرة، ومنها إلى سراييفو، ركبت الطائرة، بدأت بالتحليق بينما أنظر إلى الأرض..

- هنا عاشت ليلى نجوميتها.. هنا فقدت حرّيتها!

وبعد رحلة مليئة بالمطبات الهوائية كـ «حياتي» وصلت إلى سراييفو وهنا بدأ الفصل الأشد مرارة!

***

«ليلى أليتش.. محبوبة الجميع»

لم أغادر المنزل بعد تعرضي لهذا العارض الصحي، فالمطلوب مني أن أحتفظ بكامل لياقتي وهدوئي والابتعاد عن أيّ منغصات، كان محمود يتلقى اتصالات كثيرة للسؤال عن حالاتي، يطمئنهم إذ يخبرهم أنني بخير وأن الأمر لا يتعدى سوى أزمة صحية، قام «ودون علمي» بإلغاء جميع ارتباطاتي المستقبلية، على الرغم أن موسم الأعياد كان على الأبواب وهو الموسم الأهم لي كمطربة لكن وكعادته، يفكر في صحتي أولاً.

اقترح عليّ محمود أن نذهب إلى البوسنة للقاء عائلتي هناك، فلم أستطع الرفض، أنا بأشدّ الحاجة لهم الآن، لأحاديثهم وضحكاتهم، شعرت أن داليا يجب أن تكون في حضن أمي، تلعب مع أبي، تعرف أن لديها جداً وجدة يمتلكان قلب يتسع هذا الكون.

علمت قبل سفرنا بيومين أن محموداً بصدد إلغاء ارتباطاته مع فاتن،

maktabbah.blogspot.com

لكنني رفضت وهددته إن قام بهذا الأمر فإنني سأحزن وربما هذا الأمر سيضرّ بصحتي، كان الأمر مرعباً له، طلب مني أن أتراجع عن قراري لكنني رفضت وأخبرته أنني سأكون بخير إلى جانب عائلتي هناك.

مرغماً، تركني وليته لم يتركني، فأنا لم أع جيداً هذا التصرّف، فحالتي الصحية كانت تتطلب مني وجود محمود إلى جانبي كما عائلتي، لكنني أخاف عليه الفشل والتراجع، مزيد من الالغاءات سيلغي ثقة المنتجين ومتعهدي الحفلات به وهذه أكبر خسارة له، آه يا محمود، كم تمنيتك بقربي!

وصلت إلى سراييفو مساءً، كان في استقبالي أبي وأمي، لقد أخبرهما محمود بما جرى لي، لم أكن أعرف هذا الأمر، إلا عندما شاهدت دموع أمي وسؤالها عن حالي، بينما حمل أبي داليا على ظهره، بصراحة نسيت دموع أمي وأنا أرى ضحكات داليا وهي تلعب مع أبي، شعرت بسعادة غمرت قلبي، وكأن هناك رسالة حينها وصلت لي.. «دعي داليا في سراييفو.. فهنا أنسب مكان لها لتكمل حياتها»!

قضيتُ وقتاً ممتعاً للغاية إلى جانب عائلتي، والأصدقاء القدامى، لم أشعر حقاً أنني أعاني من أيّ إرهاق أو تعب، وما زاد سعادتي اتصالات محمود وإبلاغي بنجاحاته المتكررة مع فاتن.

كنت أنظر إلى ابتسامات المحيطين بي، وأحاديثهم، لكن كان هناك أمرٌ غريبٌ، كمن يشاهد حلقة أخيرة في مسلسل، يدرك انه لا يوجد حلقة أخرى، كنت أشاهدهم حولي وأنا أشعر أنها المرة الأخيرة التي سأعيش بها هذا الشعور، وللأسف لم يخب ظني.

في يوم الأحد 22-5-2008، وفي أثناء استعداداي لمغادرة سراييفو، كنت أحمل داليا منتظرة أن يقوم أخي بنقلي إلى المطار، تسارعت نبضات قلبي، شعرت بذلك الشعور الذي انتابني بعد الحفلة، أنزلت داليا، جلست على الأرض، بدأت أتنفس بصعوبة، قبل أن أجد أيادي تحاول أن تلتقطني قبل السقوط.

maktabah.blogspot.com

فتحت عيناي، أستمع لأصوات أقدام، كلمات غير مفهومة، صراخ، لا أستطيع أن أحرك رأسي، أنظر إلى السقف الذي يتحرك، الأنوار، قبل أن أدخل غرفة، أغلق بابها، لأعود إلى «نومي»!

بعد أسبوع، استطعت أن أستعيد وعيي، لقد وجدت الأسلاك ذاتها، حولي عائلتي ومحمود الذي كان بحالة يرثى لها، لقد ارتسمت على عينيه هالة سوداء كبيرة، من السهر والبكاء كما قالت لي أمي بعد ذلك.

- حالتي حرجة أليس كذلك؟

أخبرت المحيطين بي، جميعهم طلبوا مني الهدوء، حتى محمود الذي وضع يده على فمي مطالباً إياي بعدم نطق أي كلمة..

هنا شعرت أن الموت اقترب مني جداً، لقد حانت ساعة النهاية، لكنّ مشهد عائلتي ومحمود وهم يحيطون حولي، كان الأجمل في حياتي، أنا محظوظة أن أملك زوجاً وعائلة يحتوياني بكل حبّ، وجمهوراً يمنحني كل احترام وتقدير وود، هل هناك إنسان يستطيع أن يملك هذا كله؟ قليلون.. وأنا منهم!

كانت حالتي يوماً في تصاعد وأخرى في تراجع، هنا كان لي قراران أولها أن أكتب سيرتي الذاتية وثانيهما يتعلق بداليا وهو القرار الذي أثار استياء محمود لكن تفهمه في النهاية وعلم بما أفكّر فيه.

- حبيبي إن حانت ساعة رحيلي..

يقاطعني وبنظرات قلقة..

- أرجوك.. لا تردّدي أموراً مشؤومة هكذا..

أبتسم في وجهه.. أحاول أن أخفف قلقه..

- أتمنى أن أعيش العمر إلى جانبك، لكنني يجب أن أسبق الوقت قبل أن يسبقني..

maktabah.blogspot.com

تذرف عيناه الدموع.. أمسحها، وأطلب منه أن يهدأ..

- محمود أريد أن تبقى داليا إلى جانب عائلتي هنا، أرجوك، لا أريد أن تكمل حياتها هناك على وقع أن أمها شخصية مشهورة وربما هذا الأمر يرتد عليها بالسلب وليس بالإيجاب، كذلك هنا الفرص الدراسية أفضل ولديها عائلة مقتدرة مالياً تستطيع توفير كل احتياجاتها، وأعلم أنك لن تقصر، لكن هنا أمي وأبي متقاعدان ليس لديهما عمل وسيمضيان كل الوقت معها، أما أنت ففي حالة عمل مستمر، ولن أسمح لك أن تضحي بكل هذا من أجل قضاء كل الوقت معها.

حاول وبشتى الطرق أن يثنيني عن قراري لكنني كنت مصرة، فـ «داليا» يجب أن تعيش هنا وأعلم أن مستقبلا باهراً ينتظرها.

طلبت منه أن يعدني، رفض في البداية وقال إن الأمور ستكون بخير وإن الوعد لن يتحقق لأنني سأعيش إلى جانبه ما تبقى من عمره، تمنيت ذلك، فالعيش إلى جانبه «جنة» لكنني طلبت منه أن يعدني وكان لي ذلك.

كذلك طلبت منه أن يوفر لي كاتباً أو صحافياً يستطيع أن يوثق مسيرة حياتي، إن حدث لي سوء، فالكتاب سينشر وسيكون دخله لأعمال خيرية في سراييفو.

رغم رفضه لما قلته أيضاً، لكنه وافق في النهاية وأجرى اتصالاً مع أحد الصحافيين والذي طلب مني عدم ذكره اسمه ولم يبد الأسباب وراء ذلك.

وها أنا أجري اتصالا تلو الآخر مع هذا الرجل لأخبره بمسيرة حياتي، لقد كان يعيد لي ما قلته وكيف كتبه بأسلوبه، لم يخنه قلمه قط، لقد وصف كل مسيرة حياتي بطريقة جعلتني أشاهدها أمامي.

وبعد أن انتهى أرسل إليّ نسخة من الكتاب، قرأته لم أضف عليه شيئاً، فهو استطاع أن يصف حياتي مثلما كانت، أتمنى أن يعجبكم هذا الكتاب، وأتمنى ألا أحتاج إلى نشره، لكن إن حدث لي سوء، فسيحق لزوجي محمود نشره متى أراد!

maktabah.blogspot.com

رسالتي الأخيرة.. أحبوا الحياة وعيشوا أفراحها، اتركوا الماضي والحزن خلفكم، فالأيام الجميلة قادمة لا محالة..

مع محبتي.. ليلى

**

(توفيت ليلى صفوت صباح يوم التاسع من يوليو عام 2008).. أكتب تلك السطور الأخيرة.. بناءً على طلبها، أخبرتني أنها دائماً تبحث عن لمستي في أيّ عمل تقوم به، حتى هذا الكتاب..

لقد عشت بسعادة كبيرة إلى جانب ليلى، لقد عملنا معاً وتجاوزنا كلّ الصعاب، لا أعرف كيف أصف حزني بـ «فقدانها»..

لا يسعني سوى القول إنني أحبها من كل قلبي.. مثلما أحبتني بحواسها جميعاً

.. لم أعرف حتى الآن كيف أتغلب على حزني.. لكن أودّ أن تبقى في ذاكرتكم مثلاً ستبقى في ذاكرتي للأبد

محمود

زوج الراحلة ليلى صفوف

***

«ليلى أليتش.. الحقيقة المرّة»

فور وصولي إلى سراييفو، كنت أبحث عن شقة سكنية في منطقة بعيدة؛ لأسكن بها أنا وداليا، وجدت إحدى الشقق شمال العاصمة، بدأت التحضير لبدء حياة جديدة، ونسيان كل ما حدث في الماضي، لم أجب اتصالات محمود المتتالية، بدأ بإرسال رسائل نصية كتب في أحدها..

(لن تستطيعي الاختباء طويلاً، سأعثر عليك.. أعدك)

maktabah.blogspot.com

مشاعر الخوف والقلق بدأت تنتابني، فأنا أعرف هذا الرجل، لن يتركني وحيدة، سيتابعني وسيراقب كل حركة لي.

تعرفت على جارة طيبة تدعى إيلين تسكن وحدها بعد رحيل زوجها وابنها الوحيد ضحية الحرب، لقد أحبت داليا كثيراً، بدأت ترعاها كلما كان لدي عمل في الخارج، حيث كنت أفكر في شراء محل لبيع التذكارات السياحية، خاصة وان البوسنة بدأت تنتعش وتجذب السياح لها.

ما لم يكن في خلدي «حدث».. كنت جالسة في أحد المحلات لسؤال صاحبها عن الإيجار وحركة السوق، فجأة شعرت بالتعب، إحساس يصعب وصفه، وجدت نفسي أسقط من الكرسي على الأرض، ما هي إلا دقائق حتى نقلتني الإسعاف إلى إحدى المستشفيات القريبة.

فتحت عيني، وأنا محاطة بالأجهزة والأسلاك.. آآه مجدداً.. قلبي يخذلني.. لا أعرف ما الذي دفعني إلى أن أرسل رسالة نصية إلى محمود أخبره بما حدث لي، بعد يومين، كان حاضرا في المستشفى، يتحدث إلى الدكتور المعالج، ثم دخل علي الغرفة، ودون مقدمات قال..

- اعتقدت أن دجاجتي لن تبيض ذهباً مجدداً، أخبرني الدكتور أن قلبك أصبح ضعيفاً جداً ويصعب عليك حتى الغناء، أعتقد أن من الواجب علي الآن أن أتركك هنا، لتكملي حياتك، لكن أود أن تقومي بالتوقيع على ورقتين، ولن أطلب منك شيئاً آخر..

وافقت دون معرفة ما تحتويه تلك الأوراق، لكن كنت أريده أن يرحل، ما دعاني إلى الاتصال به هو أنني كنت أريده أن يأخذ داليا ليرعاها، لكن لم يسأل عنها أو عن مكانها، من المستحيل أن يهتم هذا الرجل بها

أخرج الورقتين، كانت الأولى تعني امتلاكه كافة حقوق الأغاني الخاصة بي ليسهل طبعاً عملية تحويلها إلى «دجاجته الجديدة» فاتن، أما الثانية، فكانت تحوي السماح بنشر سيرتي الذاتية.

نظرت إليه..

maktabbah.blogspot.com

- أنت لا تعرف الكثير من أحداث حياتي، فكيف ستكتبها!

يضحك وهو يشير أن علي التوقيع..

- أعرف بعضا منها، الأمر لا يحتاج إلى حسابات معقّدة، كاتب ذكي مع بعض البهارات الجيدة، وسنصدر كتاباً أستطيع من خلاله أن أحصل على بعض النقود وكذلك ربّما يتحوّل إلى مسلسل تلفزيوني ما أدراك!

قمت فوراً بالتوقيع على الورقة، كل ما أريده الآن أن يرحل.. وحدث هذا الأمر.. نظر إليّ وقال..

- تركت رقمي لدى الدكتور المتابع حالتك، لقد طلب أن نبقى على تواصل، فهو يخشى أن يحدث لك مكروه، لكن لا أتوقع ذلك، فأنت مثلما قلت لك سابقاً بـ «7 أرواح».. الآن إذاً هو اللقاء الأخير بيننا، أتمنى أن تمضي حياتك بسعادة وهدوء، وأتمنى ألا تتابعي أخباري وأخبار فاتن، فقلبك الضعيف لن يحتمل المزيد..

ابتسمت ورفعت يدي ملوحة له بالوداع، ذهب وأغلق الباب، هنا شعرت أنني «حرّة»، لقد رحل محمود، لن يعود مجدداً، يا إلهي، أشعر أن قلبي تحسّن، ربّما كان هو الداء الحقيقي له.

لكن، فكّرت جيداً في حال حدوث مكروه لي، فماذا سيحدث لـ «داليا»، لكن كانت الإجابة سهلة، جارتي «الين»، هي من ترعاها وتهتم بها، سأترك كل ما أملك لتلك الانسانة الطيبة، فهي لا تحمل أطماعاً من هذه الدنيا الفانية وستكون داليا سنداً لها عندما تكبر.

الأمر الآخر الذي شغلني هو كتابة سيرتي الذاتية، استعنت بـ «الين» والتي قامت مشكورة بكتابة كل تفاصيل حياتي، لم أكذب في أي حدث أو سطر، فالمهم لديّ أن أوضح حقائق غابت عن الجمهور والإعلام، ليعرف الجميع حقيقة محمود، وليعرف كم عانيت في حياتي للوصول إلى هذا المكان.

طلبت من ايلين أيضا أن تحتفظ بما كتب، حتى بلوغ داليا سن الثامنة

maktabbah.blogspot.com

عشرة لتستطيع أن تستفيد ماديا من حقوق الكتاب في إكمال تعليمها.

كذلك كتبت الرقم الخاص للصحافي عمر بركات، وهو صديق طيب، تعاونت معه كثيراً سابقا وأشعر أنه يستطيع أن يسهم بنشره مع منحه نسبة 10% لمبيعات الكتاب.

لقد حضرت لكل شيء، ولا أستطيع إخفاء أنني سمعت بعض أحاديث الأطباء خلف الستار يقولون إن حالتي ليست بالمستقرة، لذلك ربما أصبح الوداع قريباً.

أستطيع أن أكتب رسالة أخيرة..

إلى كل من أحب ليلى، لتعرفوا جيداً كيف عاشت وعانت، لتعرفوا أنها ظهرت بابتسامتها أمامكم بعد معاناة طويلة وحرمان.. أتمنى أن أبقى في ذاكرتكم حية.

رسالة إلى محمود..

أذكره فقط أن الظالم لا يهنأ طوال حياته، سيأتيه يومٌ يندم على كلِّ ما فعله، وسيأتيك هذا اليوم، عاجلاً أو آجلاً!

******

كانت هي الورقة الأخيرة، وقف مقداد، بدأ بالتجول في المكتب ذهاباً وإياباً، هذه طريقته إذا غاص بالتفكير.. يردد بداخله:

«فعلاً مثلما قال عمر، هو كنز، ليس فقط ما يتعلق بـ «جمال»، بل محمود الذي أصبح أشهر مديري الأعمال، سيحدث هذا الكتاب ضجة غير مسبوقة، لكن يجب أن أتمهل قليلاً، يجب أن التقي داليا، أجلس معها، أريد أن أكتب النهاية بطريقتي أنا، لن أتركها هكذا»!

في صباح اليوم التالي.. كان مقداد حاضراً في المكتب، فهو لم يغادره، بل اكتفى بقيلولة قبل أن ينهض ويتوجه إلى بنك قريب لسحب المبلغ الذي طلبه عمر فور دخوله يجد رهف أمامه، يطلب منها أن تأتيه بعقود

النشر وأن تجري اتصالاً على عمر لتخبره أن يأتي من أجل أتمام أمور الكتاب..

ما هي إلا نصف الساعة حتى وصل ذلك الشاب.. وبعد أن ألقى التحية على مقداد..

- يبدو ان الكتاب نال إعجابك، إذا لنكمل بقية الإجراءات..

يبتسم مقداد..

- لكن لديّ طلب واحد!

- وما هو؟

يردّ عمر مستغرباً ومتأملاً أيضاً ألا يكون هناك مساومات على المبلغ المطلوب!

ينظر إليه عمر، ثم يخرج المبلغ من الدرج القريب منه، يأخذه عمر ويقوم بعده ليتأكد أن المبلغ صحيح ولا نقصان فيه..

- ربما تريد الآن أن تعرف ما هو طلبي؟

يهزّ عمر رأسه..

- أريد أن أذهب معك إلى داليا، أريد فقط أن أسألها بعض الأسئلة لكي أكتب خاتمة الكتاب وكذلك أريد زيارة المستشفى الذي توفيت فيه، وبكل صراحة أنا على استعداد لرفض الكتاب، إن لم أنل معلومات تتعلق بلحظات ليلى الأخيرة في الحياة، وإذا ساعدتني بهذا الأمر، فسأرفع نسبتك إلى 20% مع هدية متواضعة مني ستعجبك جداً!

لم يجبه عمر، لكنه اكتفى بالقول

- سنذهب معاً إلى داليا، لكن الأمر لا يطول أكثر من ساعة، فأنا طلب مني كذلك السرية، وربما ذهابك معي يعد بطلان لتلك الوصية، لكنني سأقنعها أن الأمر لا يعد سوى تعديل وإضافة بعض المعلومات وأتمنى أن

تقتنع بهذا الأمر حتى لا أخسر أنا كل شيء!

يوافق مقداد، ويتفقان على موعد اللقاء في المطار قبل السفر إلى البوسنة للقاء داليا.

بعد يومين وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً كان موعد الإقلاع إلى سراييفو، الرحلة تمتد خمس ساعات، كان القلق واضحاً على عمر والذي حاول إقناع مقداد أن يكتب هو النهاية بطريقته لكنه أجاب..

- كل ما ذكرته ليلى كان دقيقا، لم أجد معلومة كاذبة أو خاطئة، فلماذا لا أذهب إلى المستشفى وأعرف اللحظات الأخيرة في حياتها، ربما سأعثر على شخص يدلني على ما أريد معرفته..!

هزّ عمر رأسه.. بينما ابتسم مقداد

- لا تقلق يا رجل، الأمر لن يأخذ مني سوى يومين فقط، لا أعتقد أن هناك شيئاً سيئاً سيحدث!

وصل مقداد وعمر إلى سراييفو في وقت الغروب، ذهبا فوراً إلى الفندق، طلب عمر أن يؤجل الموضوع إلى صباح يوم الغد، وافق مقداد على الرغم أن الحماس كان يدفعه أن يذهب فورا إلى المستشفى أولاً للبحث عن الطبيب الذي أشرف على ليلى، لكنه وافق بالنهاية فـ «عمر» يمتلك خبرة في هذا البلد حيث سبق له زيارة سراييفو عدة مرات.

في ساعات الصباح الأولى جلسا في مقهى صغير قريب من الفندق، كان عمر يدخن بشراهة بينما يراقبه مقداد..

- يا صديقي، أريد أن أعرف منك معلومة واحدة فقط ؟

ينظر إليه عمر ويطفئ سيجارته..

- الملف الأخضر هو ما احتوى المعلومات، أنا ليس لديّ شيء

يقاطعهما الجرسون، ليسجل طلباتهما.. ليكمل مقداد

maktabah.blogspot.com

- بلى، لديك معلومة جداً مهمة، كيف وصلت إليك تلك الأوراق والمستندات، من أعطاك هذا الملف؟

يخرج عمر سيجارة أخرى ويشعلها..

- يا رجل، الإجابة واضحة، داليا هي من أعطتني كل هذا.

يفضّل مقداد الصمت ليراقب عمر وهو يدخن السجائر.. واحدة تلو الأخرى!

في صباح اليوم الثاني، نهض مقداد باكراً، يجد عمر ينتظره عند باب الفندق وبجواره «سيارة أجرة»، يطلب منه الركوب، انطلقا إلى متجر داليا، كانت سيارة الأجرة تأخذ منحنيات وشوارع مختلفة، بينما عينا مقداد تراقب كل شيء، كان يشعر أن هناك أمراً غريباً يحدث، لقد عاد سائق الأجرة إلى الشارع ذاته مرة أخرى، يبدو أن عمر يحاول ألا يجعلني أعرف مكان هذا المتجر، قبل دخولهما أحد الشوارع لاحظ مقداد وجود متجر كبير يسمّى «الرياضة العالمية» احتفظت بالاسم وبرقم الشارع الذي لاحظته أيضاً.

وصل إلى المتجر المنشود، كان هناك اكتظاظ وازدحام عليه، لم يدخل من الباب الرئيس بل ذهب إلى الخلف، حيث كان هناك باب آخر طرقه عمر لتفتح فتاة صغيرة الباب، تطلب منا الدخول، جلسا داخل الغرفة بينما ذهبت تلك الفتاة خارجاً، ما هي الا دقيقتان حتى فتح الباب..

إنها داليا، لقد كان من السهل معرفة ذلك على مقداد، هي تشبه أمّها كثيراً، لكن أطول منها قليلاً، وأيضاً أكثر نحافة، قامت بالسلام عليهما، ثم جلست في المكتب.

بادر عمر بالحديث فوراً لكن باللغة البوسنية المحلية.. استغرب مقداد من هذا الأمر فكيف لم يخبره بهذا الأمر..

نظر ليقول إلى مقداد

maktabbah.blogspot.com

- أخبرني ما أسئلتك.. ؟

كان سؤاله الأول عن آخر لحظات حياة ليلى، ترجم عمر السؤال، تنهدت داليا ثم تحدثت باللغة المحلية وهي تنظر إلى مقداد بينما عمر يقوم بالترجمة

- لا أتذكر شيئاً لقد كنت طفلة، لكن أمي «إيلين» أخبرتني بينما أذن الأطباء لها بالخروج لاستقرار حالتها، كانت تبذل جهداً كبيراً في أن تجهز هذا المتجر الذي أمامك، وبعد افتتاحه بأيام قليلة، وجدت متوفاة إثر سكتة قلبية بالقرب من باب شقتها، حاولت ايلين إنقاذها لكن لا جدوى من ذلك!

أمّا سؤاله الثاني فكان عن محمود هل يتواصل معها، ترجم عمر السؤال، لتتغير نظرات داليا إلى مقداد وتقوم بالتحدث بصوتٍ عالٍ، كأنها تلومه بأمرٍ ما، قال عمر

- لا تسألني عن هذا الرجل، هو السبب فيما حدث لأمي، لقد حوّل حياتها إلى جحيم، أتمنى ألا أسمع أي خبر عنه مجدداً، لا أعتقد أن هناك أباً بتلك القسوة لقد ترك أمي وحيدة وتركني أنا كذلك دون حتى أن يطمئن على حالتي، لا أعتقد أنني أريد أن أراه مجدداً، فلدي هنا عائلة جديدة تهتمّ بي وتحبني.

كان سؤال مقداد الثالث حول رغبتها في الظهور إعلامياً للحديث عن والدتها، لكنها رفضت ذلك وقالت إنها لا تودّ ذلك وتريد ان تعيش في هدوء بعيداً عن عدسات المصوّرين ويكفي الكتاب ليكشف للناس حقائق لم يعرفوها.

كذلك سألها عن مكان المستشفى فأخبرته أنه تمّ إغلاقه وبناء آخر مكانه، وجميع موظّفيه ذهبوا إلى أماكن أخرى ولا يمكن العثور عليهم بسهولة.

كانت تلك إجابة لمقداد للتوقف عن البحث فيما حدث لليلى، قام بتحيتها وخرج برفقة عمر..

maktabah.blogspot.com

ركبا سيارة الأجرة، نظر مقداد إلى عمر وبلهجة ساخرة قال..

- يا مدرّس اللغات من أين اكتسبت اللغة البوسنية.

ضحك وقال..

- لدي زوجة بوسنية، ألم أخبرك بهذا الأمر، من ثم أتردد على هذا المكان دائماً.

صمت مقداد ولم يعلق على ما قاله، فالشك لازال يحاصر أفكاره

عادا إلى الفندق، أخبر مقداد عمر أنه سيغادر غداً بينما أبلغه هو أنه سيعود بعد أسبوع، أخرج من جعبته ظرفاً كبيراً يحوي المبلغ المتفق عليه، ثم جلسا في إحدى الطاولات بصالة الاستقبال وأخرج مقداد بعض الأوراق التي تخص عقد الكتاب وأموره القانونية قام عمر بالتوقيع عليها جميعاً..

عاد مقداد إلى غرفته، لم يستطع النوم، كان يفكر فيما حدث.. تصرّفات عمر، وحديث داليا، أحس أن هناك أمراً مريباً يحدث لكن قال في قرارة نفسه..

- لقد حصلت على النهاية وهذا يكفي!

حل الصباح، قام مقداد بتجهيز حقيبته وتوجه إلى مكتب الاستقبال لإكمال بقية إجراءات الخروج من الفندق، وفي أثناء انشغال الموظف بتأدية عمله، تذكّر مقداد عمر فسأل الموظف..

- هل تعرف الرجل الأصلع الذي قام بمرافقتي إلى هنا..

هزّ رأسه..

- نعم، لقد غادر قبل ساعة بسيارته الخاصة.

كررت خلفه..

maktabban.blogspot.com

- سيارته الخاصة!

أجابني..

- نعم.. هل كنت تنتظر أن يقلك؟

ابتسم مقداد بوجهه، ثم فكر وهلة، طلب من الموظف أن يقوم بإلغاء إجراءات الخروج ويمدد وجوده في الفندق يوماً آخر، قام بالاتصال على شركة السفريات وأبلغها بتأجيل رحلته، ذهب إلى الخارج بحثاً عن سيارة أجرة، وجد واحدة، كان من سوء حظ مقداد أن السائق لا يعرف الإنجليزية، ليستعين بموظف الاستقبال، ليقوم بترجمة المكان الذي يريد الذهاب إليه، اخبرهما السائق انه يعرف المكان الذي يقصده مقداد هو لا يبعد أكثر من خمس دقائق عن الفندق.

ارتسمت علامات الاستغراب على مقداد، لقد كانا بحاجة إلى نصف الساعة ليصلاه في المرة الأخيرة..

انطلقا معاً ووصل إلى المكان خلال أقل من أربع دقائق، لقد شاهد مقداد المبنى ورقم الشارع، اتجه للأمام قليلاً ليجد المتجر، طلب من السائق أن يقف بعيدا، ركز النظر في باب المتجر الأمامي، ليجد عمر ممسكاً بيده داليا، والفتاة الصغيرة التي فتحت الباب لهما تحتضنه وتشير إلي شيء ما.. ردد مقداد

- هم عائلة، عمر وداليا وتلك الفتاة!!

ذهبت داليا والفتاة باتجاه بينما ذهب عمر إلى الباب الخلفي، ترجل من سيارة الأجرة وبدأ يسير ببطء ليراقبه، دخل دون أن يغلق الباب، اقترب من الباب مقداد ليسترق النظر.. لكن اهتز خوفاً بعد سمع صراخاً خلفه.. ليلتفت بسرعة

كانت داليا والفتاة إلى جانبها، تصرخ وتطلب منه أن يبتعد عن الباب، لكن مقداداً فعل العكس، ودفع الباب؛ ليدخل..

maktabah.blogspot.com

نظر أمامه.. شعر أن أطرافه قد شلت، لم يستطع تصديق ما رأته عيناه

- ما هذا.. ماذا يحدث هنا !!!!

يخرج عمر من الباب ويقفله، بينما تواصل داليا صراخها وعصبيتها.. وكأنها تلوم زوجها كيف سمح له بالدخول..

جلس مقداد يلتقط أنفاسه، يمسح عينيه لينظر مجدداً.. قبل أن يقول

- ليلى صفوت.. هل أنت فعلاً ليلى، أم أنني أعيش في حلم؟!

تطلب منه الهدوء، تخرج من صندوق قريب منها علبة ماء، تضعها أمامه، قام بشرب القليل منه ليمعن النظر بها، لم تتغير كثيراً باستثناء أنها ارتدت الحجاب وهناك بعض التجاعيد أسفل عينيها، تحدثت وهي تحمل ابتسامة

- الآن وبكل صدق، أنت تحمل مصيري بيديك، تستطيع أن تخرج من هنا وتخبر الجميع أنني ما زلت حية أرزق، وسأخسر كل شيء قمت ببنائه، وربما يستغل هذا الأمر محمود ويقوم بعملية استغلالية أخرى بعد أن يعلم أن دجاجته ما زالت تتنفس وتستطيع أن تبيض ذهباً.. وكذلك تستطيع أن تلتزم السكوت وتحمي تلك المرأة التي اعتزلت العالم هي وابنتها وزوجها وحفيدتها الوحيدة، وأنا بكل الأحوال سأعيد إليك المبلغ الذي دفعته، فأنا كنت أريده بمثابة هدية لمجهود عمر بعد أن قام بتلك المهمة!

يهز مقداد رأسه بالنفي..

- لا أريد المال.. لكن أريد معرفة ما حدث، لماذا تم إعلان خبر وفاتك، وأنت لا تزالين حية ترزقين، لماذا تركتي تلك الشهرة والعز، لتعودي إلى هنا كمسؤولة متجر لا أعرف إن كان يسد احتياجاتك واحتياجات أسرتك أم لا.

لم تفارق الابتسامة وجه ليلى..

- أخي الكريم، لقد قرأت قصة حياتي وتعرف كل تفاصيلها، تعرف جيداً

maktabbah.blogspot.com

أنني كنت ضحية لكثير من الرجال الذين قاموا باستغلالي بداية بـ «جلال الدين» ثم «عبد القادر» وأخيراً «محمود»، لم أعش لحظات جميلة إلا نادراً، حتى عندما تجد حشود الجماهير التي تصفق وتردد الأغاني التي شدوتُ بها، لا يعنيني الأمر بشيء؛ لأن كل شخص بعد انتهاء الحفلة سيعود إلى بيته، وأعود أنا إلى سجني أواجه محموداً ومخططاته الشيطانية وتعامله السيئ، هل ترى الآن أين أنا، حرّة طليقة، أمتلك متجراً وحفيدةً، زوج ابنتي كأبي، فهو من جنسية عربية قدم إلى هنا مهاجراً، هارباً من بطش لا يختلف كثيراً عمّا عشت أنا فيه، لذلك هو يحب هذا المكان ويساعدني في إدارة شؤونه برفقة داليا، أعتقد أنا أعيش السعادة منذ عودتي هنا.. السعادة الحقيقية والتي أراها في أن تكون محاطاً بعائلتك، ملك نفسك، لست ملكاً لأحد آخر.. أستطيع القول أنني مرتاحة الآن ينال الكلام استحسان مقداد، لكنه لم يرو غليل فضوله..

- ليلى، لماذا تنشرين هذا الكتاب الآن، لماذا انتظرتي كل هذه السنوات؟!

تضحك وتردد..

- السيد « google» هو السبب، لقد كنت أبحث عمّا كتب عني مؤخراً ففوجئتُ بوجود نسخة الكترونية من سيرتي الذاتية، لقد قرأتها أول مرة وصدمت من الكذب والتزوير الذي طرأ عليها، حاولت في البداية أن أنسى الأمر لكنني لم أستطع وأيضاً هي ضربة مزدوجة لمحمود والذي لم يلق مني أي ردة فعل طوال حياتي معه، لذلك جلست مع عمر وقمنا بكتابة السيرة الذاتية فهو يمتلك مخزون لغوي جيد وساعدني كثيراً في انتقاء المصطلحات وسرد القصة بطريقة مشابهة لتلك السيرة، أستطيع القول إنني لم أكن مهتمة بسرد ما حدث لي للآخرين لكنها كانت كرسالة دفاع عن جمال ياقوت، وتوضيح لحقيقة عبد القادر ومروة وسيئ الذكر محمود والذي أعتقد أنه بعد هذا الكتاب سيواجه الكثير من المشاكل..

يضحك مقداد..

- لن يواجه المشاكل بل سيتحطم!!

maktabbah.blogspot.com

تواصل ليلى حديثها..

- الآن أنت عرفت الحقيقة، هل لديك أسئلة أخرى

يمسك قلما قريباً منه ليبدأ برسم دوائر على ورقة بيضاء صغيرة وكأنه يفكر بما سيقول.. ثوان حتى قال:

- كيف حال قلبك؟!

- الحمد لله هو في أتم صحة وعافية، كان علاجه الهروب من كل تلك الضغوط والعيش بهدوء وسلام.

يضرب مقداد القلم على الورقة وكأنه تذكر شيئاً..

- كيف استطعتِ خداع محمود بخبر وفاتك؟

تضحك..

- كان أمراً سهلاً للغاية، اتفاق مع شخص ادعى أنه مدير المستشفى قام بالاتصال على محمود وأخبره بوفاتي، ثم طلب منه مبلغاً ضخماً تسديداً لرسوم الغرفة وأيضاً عمليات القلب المتتالية التي أجريت لي «وهو أمر لم يحدث»، فهرب هذا الرجل من دفع الرسوم وأخبرهم أن يدفنوني في أي مكان، ولا يهمّ هذا الأمر فأنا أعرف قسوة قلبه، لكنه لم يفكر بسؤال عن داليا وكأنه يقول «ارموها هي الأخرى»، لم يتصل أو يتواصل بعدها ولم أسع لمعرفة ما حدث بعد ذلك؛ لأنني بدأت الانشغال في بناء حياتي مجدداً، وبصدق أول ما كنت أقوم به هو محو «معصيتي» التي كانت سبباً فيما حدث لي.

يرد مقداد

- أمك؟

تزول الابتسامة من على شفتيها..

- عندما عدت إلى هنا، علمت بوفاتها، شعرت أن علي تعويضها، فقمت

maktabbah.blogspot.com

ببناء مسجد وبئر وكذلك إطلاق الكثير من المشاريع الخيرية وتخصيص جزء من دخل المتجر لتلك الأعمال، من أجلها فقط ومن أجل أن تسامحني، فمنذ أن تركتها وحيدة، تركتني السعادة والحظ وراحة البال، الأم يا مقداد.. هي جنتك في الأرض وليس في السماء فقط، اهتمّ بها، فثواب ذلك عظيم!

لم تستطع ليلى أن تغالب دموعها، فبكت دقيقة قبل أن يمنحها مقداد منديلاً.. لتكمل بصوت خافت

- هل هنالك مزيد من الأسئلة..؟

يقف مقداد، يشكرها على حسن الاستضافة، أصرّت ليلى أن تعيد المبلغ إليه فوافق على مضض، لكنه وعدها بتخصيص ربع الكتاب لأعمال خيرية باسم والدتها أيضاً، وهو الأمر الذي لم تستطع رفضه بل شكرته وتمنّت له حياة طيبة..

خرج مقداد من المكان، مبتسماً، لقد تلاشى فضوله، الحقيقة كلّها لديه، يفكر فور عودته بنشر الكتاب وعمل مؤتمر صحافي للإعلان عنه وكشف الأوراق التي يتضمنها أيضاً.

بعد مرور شهر..

يدخل مقداد قاعة الفندق الذي يقام به المؤتمر الصحافي وسط حشد كبير من رجال الإعلام والمهتمين.. يقف فوق طاولة وضع عليها ميكرفون، قبل أن يرحب بالموجودين، تفاجأ بسيل من الأسئلة التي دعته لطلب الهدوء من الموجودين وأن تكون الأسئلة بالترتيب.. قام الصحافي الأول

- أهلاً وسهلا.. أحمد عادل من جريدة الثقافة والفنون، في البداية ما رأيكم بما حدث لمحمود هاشم زوج الراحلة ليلى بعد أن تم سجنه بتهمة الابتزاز في القضية المرفوعة من المطرب جمال ياقوت..

يبتسم مقداد، لقد توقّع هذا السؤال

maktabah.blogspot.com

- لقد نال جزاءه.. بعضهم يتصور أن الأفعال السيئة التي يقوم بها ستمحوها الأيام، لكن لا يدرك أن القدر يحمل بداخله الكثير من المفاجأة، ومحمود ينال حسابه بعد محاكمة عادلة.

يقف صحافي آخر..

- عبد الله شبيب من صحيفة العروبة، قامت فاتن مؤخراً بالتأكيد أن كل ما ورد في الكتاب هو مجرّد أمور مزيفة لا تمت للحقيقة بصلة..

يردّ مقداد..

- إذًا، لماذا انفصلت عن محمود بعد أيام قليلة من صدور الكتاب، ولماذا لم تتجه إلى القضاء، بعضهم يجيد الحديث فقط في الدفاع عن نفسه، وهو لا يملك أي دليل على ما قيل، لذلك تمنّيت أن تلتزم الصمت خاصة وأنها الآن تواجه موجة عاتية من النقد اللاذع سواء من الإعلام أو الجمهور!

تنهال الأسئلة ويطلب مقداد الهدوء من الجميع ليقف صحافي آخر

- يوسف عبد المحسن من مجلة يوميات ثقافية، لا أريد الحديث عن القضايا وهجوم بعض من ذكر أسماؤهم في تلك السيرة الذاتية، سؤالي هو لقد ذكرت في خاتمة الكتاب أن القصة لن تنتهي عند هذا الحدّ، فالأيام حبلى بالصدمات غير المتوقعة، هل تلمّح لأمر ما؟

يبتسم مقداد ويشكر الصحافي على سؤاله..

- نعم.. هذا الكتاب هو الصدمة، لقد كُشفت حقيقة أشخاص كنّا نعتقد أنهم ملائكة يمشون على الأرض، كشفت لنا مدى معاناة ليلى والتي كنّا نظنّ أنها عاشت برفاهية وماتت سعيدة محاطة بأسرتها، الصدمات رافقتها، وسترافقنا نحن، فلا أحد يعلم ما تخبئ الأيام له، وما هي حقيقة محيطه، لا أريد الغوص بذلك الأمر أكثر، فكلّ من في القاعة لديه قصته الحقيقية والتي ربما يرويها بزيف للآخرين!

شكر مقداد الصحافيين، لكنه وقبل مغادرة المسرح قال..

- لدي مفاجأة من العيار الثقيل لكم..

صمت كلّ مَن في القاعة.. آخرج هو أداة تحكم شاشة العرض، انطفأت الأنوار.. سطع الضوء في قلب الحائط..

- انظروا الآن ماذا ستشاهدون.. تلك هي الحقيقة الوحيدة التي لم يكشف عنها..!

يظهر في الشاشة.. صورة قبر كتب عليه ليلى صفوت آليتش.. أنيرت الصالة من فلاشات المصوّرين، ومحاولات بعض الصحافيين لسؤال مقداد عن تفاصيل الصورة، لكنه رفض وخرج من الباب الخلفي، أخرج هاتفه، كتب رسالة.

«أهلا ليلى.. لقد انتهت الحكاية»

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية

والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

t.me/alanbyawardmsr